سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الرابع

عام
الدمار والانهيار

obeikan.com

obeikan.com

١ - دولة الرعب

مضى عام ٢٠٠٦ بعد أن أسس لدولة مكتملة الأركان لا علاقة لها بعراق الحضارة والتاريخ أو المستقبل الموعود الذى بشرت به أمريكا عندما رفع جندي أمريكي صبيحة التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣ إصبعين بعلامة النصر فوق تمثال صدام حسين فى ساحة الفردوس المتهاوي،.. عندما اندفع صبية وشيخ وبطل سابق في رفع الأثقال على وقع صراخ الجنود إلى مكان التمثال يحطمون ماتبقى منه ويحملونه وزر الهزيمة وسنوات الكبت والجوع والحروب والحصار والتغييب.

هذه الدولة التى اكتملت أركانها بنهاية العام ٢٠٠٦ هى دولة الرعب التى أصبحت حدودها بحجم حدود العراق الجديد .. لها قادتها من أمراء الموت وشوارعها المفروشة بالدماء وجثث الأبرياء .. ليبدأ عام ٢٠٠٧ الذى كان عام الدمار والانهيار والكوارث واللامعقول .. ارتسمت فيه الفواجع ليتمدد زمن الحرائق ويطيح بآلاف الرؤوس ويضرب كل الرموز بدءاً من شارع المتنبى العريق مرورا بجسر الحسرافية وزلع كهرمانة فى بغداد ومئذنة المرقد المقدس فى سامراء الذى أطلق تفجير قبته الذهبية موجة العنف الطائفى التى أحرقت الأخضر واليابس وكادت أن تقود العراق إلى حرب أهلية شاملة .. وتجلى زمن المذبحة فى أبشع صوره .. فلا حصانة لمكان ولا إنسان ولا احترام لقيم أو تقاليد أو أعراف راسخة فى المجتمع العراقى ذى الطبيعة العشائرية فما بالك بالقانون الوضعى المهترىء الذى لم تقم له دولة تحميه وتكرس بنوده وتفرضها على حكام زمن المذبحة .

جاء عام ٢٠٠٧ ليكرس مبدأ الموت والدم في شوارع العراق ومنازله ويطرح تساؤلا هاما هو أين كان هؤلاء المتحاربون الذين يقفون اليوم على أبواب الأحياء السنية والشيعية يستعرضون مهارات قتل العراقيين والتمثيل بجثثهم وتهجيرهم من منازلهم وفرض القوانين الرجعية على حياتهم؟ .. هل هم عراقيون فعلا أم كما يقول الناس فى الشوارع وفى أحاديثهم الخافتة على أضواء اللالات / لمبة الجاز/ فى بيوتهم التى عشش فيها الرعب أ هؤلاء الذين يمارسون مهنة القتل والخطف ليسو عراقيين وإنما استوردهم المحتلون لينفذوا خططا ثم يختفون مرة أخرى بعد أن يتم قتل واعتقال بعضهم على أيدى من جاء بهم ليقتلوا أهل البلد ؟؟

جاء عام ٢٠٠٧ وقد استكمل أمراء الحرب كل متطلبات الحصانة ومقومات الجبروت ليزرعوا الموت فى زمن المذبحة ومعهم ميليشياتهم المدججة بالكراهية والارتباطات المشبوهة،.. استخبارات، وقطاع طرق، ومارقون، وأدعياء، ومحترفو قتل

وتدمير مدعومين بالفوضى السياسية المدمرة التى ورثتها حكومة نوري المالكي عن سابقاتها، فاحتفظت بالتقسيم الطائفي لوزاراتها في صيغة «حكومة الوحدة الوطنية» وتقاتل السنة والشيعة والأكراد سياسياً طوال اشهر لضمان حصة في الحكومة والقرار كما تقاتلوا بواسطة المسلحين على الأرض للتنفيس عن الاختناقات في أعلى قمة الهرم.

تبادل أطراف المشهد السياسى الاتهامات ونصب المكائد، كما تبادل المسلحون والمليشيات قذائف الهاون والاغتيالات ، وتحولت أحياء بغداد إلى ساحة صراع طائفي لتكريس تقسيم مذهبي يضمن «رصافة» شيعية و «كرخ » سني وأيضاً «كركوك» كردية.

وارتفع القتلى في صفوف القوات الأمريكية إلى أكثر من ٣٠٠٠ جندي .. فيما بلغت تكلفة الحرب على العراق مطلع عام ٢٠٠٧ إلى أكثر من ٢,٣ تريليون دولار .

عام ٢٠٠٧ شهد ما أطلق عليه «مذبحة المروحيات» بعد أن صار لدى المسلحين إمكانات عسكرية متطورة لإسقاط نحو ١٣ مروحية في شهرين

وسبقه صراع تنظيم القاعدة مع المجموعات المسلحة صراع دام مع العشائر السنية في المناطق التى كانت معاقل التنظيم حتى نهايات العام ٢٠٠٦ وهو ما قاد إلى حرب سنية – سنية معلنة شملت قتال جماعات من داخل عشائر البو عيسى والبو نمر وغيرها فى محافظة الأنبار وعشائر الجبور والخزرج فى صلاح الدين وهو ما أجج الصراع وساهم فى اتساع ميدان القتل الذى أصبح غير محدد المعالم أو الأهداف .. فالجميع يقتل الجميع .

فبالإضافة إلى تكفير الشيعة وقتل الشرطة والجيش والموظفين والإسهام في تقسيم العراق والمطالبة بقتال الطوائف العراقية الأخرى كانت الهوة تزداد اتساعاً بين القاعدة ومجموعات المقاومة العراقية لتتحول إلى مواجهات شبه يومية وعمليات اغتيال متبادلة طالت بالطبع أهالى المناطق التى ينتمى إليها المسلحون وأكثرها عنفا كان القتال بين عناصر الجيش الإسلامى وتنظيم القاعدة فى عدة مناطق سواء بالعاصمة بغداد وضواحيها أو المحافظات التى تعتبر مناطق نفوذ للطرفين فى صلاح الدين وديالى والأنبار .

٢ - ابنى قاطع طريق

دخلت عناصر المليشيات المسلحة إلى ساحة المواجهة الطائفية بشكل أشد تطرفا في مواجهة القاعدة واتخذت من مبدأ حماية الشيعة مسوغاً لاستعراض قوتها

واسهم غياب التنظيم والاستقطاب الخارجي في تحول جيش المهدي التابع للزعيم الشيعي مقتدى الصدر من جبهة مناهضة الاحتلال إلى سلاح مواجهة طائفية بموازاة القاعدة، ودخلت المجموعات المسلحة الأخرى مرغمة ساحة الصراع الجديدة التي ضاعفت فوضى العراق وقادت إلى واقع مذهبي مرير تعددت أوصافه لتجنب الإشارة إلى حرب أهلية.

وتضاعفت أعداد المقاتلين العراقيين الذين تم دمجهم في صفوف الشرطة والجيش إلى نحو ١٥٠ ألف مقاتل فيما تضاعفت أعداد المسلحين والميليشيات إلى ضعف هذا العدد وتفنن المتطرفون في تشويه جثث المختطفين فاستخدموا المثقاب الكهربائي / الدريل/ وتقطيع الأوصال والكي والحرق وقطع الرؤوس وبعضهم شق البطون وحشوها بالحصى.

وهجر آلاف الأطفال مدارسهم تحت مطرقة العنف اليومي وصارت لعبهم أسلحة ودبابات ونقاط تفتيش وهمية تماهياً مع عناصر الميليشيات.

ويروى لى «أبو شجاد» وهو شيعى من سكان حى البياع أنه كان عائدا ذات مرة إلى منزله ووجد الطريق مقطوعا وعشرات السيارات تقف فى طابور أمام إحدى نقاط التفيش التى نصبها مسلحون ملثمون يرتدون الزى الأسود وكانت أجسادهم ضعيفة ويمسكون بأسلحة تشبه الحقيقية .. بينما يرتعد سائقو السيارات وسط دعوات من الركاب بالرحمة والستر حيث كانت نقطة التفتيش التابعة للميليشيات تعنى سقوط أكثر من قتيل فى الحال أو اختطاف بعض المارة على الهوية .. وعندما اقترب أبو محمد بسيارته عندما جاء دوره فى التفتيش اكتشف أن من يقود هذه المجموعة هو ابنه محمد الذى ارتعد وهرب عندما رأى والده حيث كان يمارس اللعب مع بعض من زملائه الذين استهوتهم أدوار المسلحين الملثمين وزاد من إعجابهم بها نجاح التجربة وشعور الخوف والرهبة الذى كان ينتاب العابرين منهم دون أن يعلموا أن ملابسهم وأدوارهم وأسلحتهم كلها وهمية مثل نقطة التفتيش إلا أنها كانت ثقافة الرعب التى فرضتها فرق الموت والميليشيات فى زمن المذبحة وجعلت من يحمل أى سلاح زائف ويرتدى زياً أسود محل تقدير من الناس بفعل سلطان الخوف وسيناريوهات القتل العبثى التى انتشرت فى زمن المذبحة وشهدت فى العام ٢٠٠٧ أوج انتشارها دون ضابط أو رقيب أو حسيب .

٣ - حرائق المتنبى

غريبة هي العلاقة بين المتنبي وبغداد وتزداد غرابة فى زمن المذبحة وتحديدا عام

الدمار والانهيار ٢٠٠٧ .. فهى علاقة سلب مطلق ما إن تطأ قدما المتنبي بغداد حتى يلوذ بالفرار .. غير أن المفارقة في العلاقة بين المتنبي وبغداد حدثت بعد موته! إذ اختار الأرض التي لفظته دائماً، لتكون موطنه الأبدي! فمن بين العواصم والبلدان التي تقلب في جنباتها كالكوفة والموصل وحمص وأنطاكية وحلب ولبنان ومصر وشيراز وواسط، اختار بغداد وطناً للإقامة الرمزية المطلقة بعد أن ترك جسده في واسط وتحديدا فى مدينة النعمانية حيث يقع ضريحه على بعد حوالى ١٥٠ كم جنوب بغداد .

وفي بغداد تملّكَ المتبنى أروع بقعة للثقافة العراقية وهى شارع المتنبي الذى تروى أرصفته كل الحكايات وتحتض الجميع .. كاتب.. ناشر..بائع .. قارىء .. عابر سبيل.. باحث عن الحقيقة .. باحث عن متعة التنزه على ضفاف دجلة .. باحث عن لقاء الأصدقاء كل يوم جمعة فى مقهى الشابندر العريق الذى تحتضنه ساعة القشلة التاريخية الشهيرة ويواجهه محل بيع الكبة البغدادية « السراى» الذى يقف على بابه الجميع ينتظرون نصيبهم من الكبه الشهية .

وكما كان المتنبى يستقبل ضيوف شارعه العريق دائما .. يتسوقون .. يقرأون .. يتحاورون فى منتديات ثقافية وتجمعات شعرية .. استقبل المتنبى ضيوفه ذات يوم من أيام المذبحة الا أنه شارك أهل بغداد هذه المرة إحدى عاداتهم القديمة وهى صناعة الحزن، ليستيقظ على إحراق وعيه وخزائنه النفيسة من مصاحف مُنزلة، وأوراق متعانقة مع شتى العلوم والفنون والأفكار، وتراث من حوار الأفكار، وخزين؛ لا يُحصى، من المعرفة الالكترونية، وكنوز من الوثائق والمخطوطات.

شاهد المتنبى فاجعته هذه المرة دون أن يتمكن من إنقاذ كتابه المحترق واكتفى بتفقد أطلال مقهى الشابندر!.

فى يوم الاثنين الخامس من مارس عام ٢٠٠٧ اختلطت أوراق الكتب المتناثرة المحترقة مع الدماء والجثث المتفحمة على جانبي شارع المتنبي العريق في قلب العاصمة العراقية بغداد بعد أن استهدفه انتحارى قد لا يدرى قيمة ما تحويه تلك الأوراق والمجلدات التى أحرقها وما تمثله بنايات الشارع ومقاهيه من قيمة تاريخية وثقافية ليس لدى العراقيين فقط وإنما لكل المثقفين العرب .

وقد أدى الانفجار العنيف الذى شوهدت سحب الدخان التى سببها على بعد عدة كيلومترات إلى مقتل وإصابة أكثر من مائة شخص بالإضافة إلى تدمير منطقة شارع المتنبي التاريخية المليئة بالمكتبات واشتعال النيران في المتاجر والسيارات تصاعدت على أثرها أعمدة كثيفة من الدخان الأسود الخانق في سماء بغداد .

هرعت فلهر ذلك اليوم كالعادة عندما هزنى الانفجار إلى سطح البناية لأجد دخانا كثيف السواد يتصاعد وجاءنى صوت صديقى خالد مراسل وكالة رويترز عبر الهاتف ليؤكد أنها حرائق المتنبى الذى كان سواد دخانها يفوق أى سواد وعلى ما يبدو فإن الدخان نفسه اتشح بالحزن بعد أن كلل الإرهاب أعماله بعار حرق المتنبى ..

فيما كانت أصوات سيارات الإسعاف تدوى في المنطقة غرق الشارع المنظم الذى يعج بالمثقفين والمتبضعين في حالة من الفوضى وتلطخت الأرصفة بالدماء بعد أن كانت مفروشة بكل مناحى الثقافة والفكر ودمرت واجهات المتاجر وتناثر الحطام في المكان.

وتمكن رجال الإطفاء من إخماد النيران التي وصلت إلى الطابق الثالث من بعض المباني وتناثرت صفحات الكتب على الأرض بعضها محترق والبعض الآخر ملطخ بالدماء. وشوهدت جثث متفحمة ملقاة على الأرض دفن نصفها تحت أنقاض واجهات المتاجر.

وقد وقع الانفجار على بعد نحو ٥٠ مترا من مقهى الشابندر الذي كان منارة للحياة الأدبية المنتعشة فى أيام بغداد المزدهرة وظلت تقاوم الظروف المأساوية التى عاشتها بغداد على مدى العقود الماضية .

قال لى حجي محمد كاظم الخشالى صاحب المقهى العريق بعد أن فقد خمسة من أبنائه فى الانفجار المروع : أن هذه كارثة إنسانية لأن هذا المكان بعيد عن العنف إلا أن الانفجار حوله إلى حطام .. مؤكدا أن هذا المكان طالما كان يقود حملة توعية ضد العنف والمفروض أن يكون خارج دائرة الصراع والكثير من العرب والأجانب لازالوا يزورون هذا المكان العريق وأضاف أن «المجرمين استغلوا هذا الثغرة في الشارع الذي يبدو أنه خارج الخطة الأمنية».

قال لى: أن النيران شبت في عدد من المحال والمكتبات التى تنتشر فى تلك المنطقة العريقة فيما أدى الانفجار إلى احتراق عشرات السيارات بعد أن غطت الدماء وجوه المصابين وأرصفة الشارع .

وروى لى الرجل المكلوم بالفواجع أن مقهى الشابندر العريق الذى رفض أن يتحول إلى مشروع تجارى أو الاستجابة لمغريات التحول كغيره من المقاهى شهد حريقا مروعا عام ١٩٨٤ مع المخزن الذى يضمه العائد لمطبعة ابن عربى وكانت خسائر فى الأموال فقط .. فيما شهد الشارع عدة حوادث مفجعة لكنها كانت أقل تدميرا وتأثيرا إلا أن ما حدث يوم الخامس من مارس أدى إلى هدم جميع المبانى فى الشارع بسبب شدة الانفجار .

ويشرح الخشالى كيف أوقف المجرم سيارة نقل صغيرة نوع كيا محملة بالورق

الذى غطى كمية هائلة من المتفجرات أدت عند إنفجارها إلى هدم عمارة الميالى وعمارة الملى وتدمير واجهات المكتبات ومطبعة ابن عربى ومقهى الشابندر .

ويروى صاحب مقهى الشابندر كيف هرع ليسأل عن أبنائه وأحفاده المتواجدين فى المطبعة وعلم أنهم بداخلها لا يستطيعون الخروج بعد أن أغلقت إحدى السيارات المحترقة باب المطبعة وهو ما أدى إلى احتراق من فيها من بشر وما فيها من ورق وكتب ومعدات .

وقال أحد أصحاب المكتبات المحترقة وهو فى حالة ذهول أنه بحث عن أخيه الذى كان يعاونه فى إدارة المكتبة ولا زلال يجهل مصيره .. «المشكلة الكبيرة ان جميع الجثث عبارة عن قطع سوداء يصعب التعرف عليها بسبب الحروق التي تعرضت لها».

وقال نعيم الشطري، مسؤول مزاد الكتب في سوق الجمعة أن «هذا العمل جرى فقط في زمن هولاكو واليوم يحدث مجددا من قبل المجرمين القتلة الذين استرخصوا حياة الأبرياء».. مؤكدا أن قتل الكتاب اخطر من قتل الإنسان لأن الإنسان له عمر أما الكتاب فيبقى خالدا وقد حرقوه».

وأكد أن «الإرهابيين يحاولون قتل المعرفة في هذا البلد وهم يقتلون الطلبة في الجامعات واليوم يقتلون الكتاب في اعرق شوارع بغداد التاريخية».

وقد وقع الانفجار بالقرب من جامع الحيدر خانة وهو أحد الشواهد التاريخية فى المنطقة وأحيانا ما تعرف به المنطقة التى تعرف بالمتنبى كما وقع الانفجار على مقربة من التجمع الثقافي العراقي وهو عبارة عن قاعة يتجمع فيها المثقفون والأدباء، أنشىء نهاية العام ٢٠٠٣ وأصبح ملتقى للكتاب والأدباء. في وقت يشهد هذا الشارع ازدحاما شديدا.

وقال صاحب إحدى المكتبات التاريخية القديمة «لقد احترقت مكتبتي التي تضم موسوعات وكتب تاريخية نادرة ودينية مهمة جدا غير موجودة إلا في بغداد».. موضحا أن هذه الكتب تعتبر مصادر بحث علمية وأدبية للكثير من طلبة الدراسات العليا».

وكان الشارع الذي يعود إلى أواخر العصر العباسي، يعرف أولاً باسم «درب زاخا» وقد اشتهر منذ ذلك الحين بازدهار مكتباته واحتضن اعرق المؤسسات الثقافية منها مدرسة الأمير سعادة الرسائلي ورباط أرجوان (تكية دينية).

وقد أطلق عليه اسم المتنبي في عام ١٩٣٢ في عهد الملك فيصل الأول تيمنا بشاعر الحكمة والشجاعة أبو الطيب المتنبي. وكان يعرف أيضا باسم «شارع الأكمك خانة، أي المخبز العسكري.

ومن أشهر رواد هذا الشارع المستشرقان الفرنسيان لوي ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢) وجاك بيرك (١٩١٠-١٩٩٥) والأديب المصري زكي مبارك (١٨٩١-١٩٥٢) الذي كان يسكن في ١٩٣٨ في منطقة الحيدرخانة القريبة من الشارع والشاعر السوداني محمد الفيتوري.

ومن الشعراء العراقيين الذين كانوا من رواد شارع المتنبي، محمد مهدي الجواهري (١٨٩٩-١٩٩٧) وبدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤) وعبد الوهاب البياتي (١٩٢٦-١٩٩٩).

وقبل ١٥ عاما وفي ظل الحظر الدولي الذي فرض على العراق تحول هذا الشارع إلى «بورصة ثقافية» تنظم كل جمعة وتعرض خلالها اشهر الكتب والمصادر وتنتعش فيه مكتبات الرصيف التي يفترش أصحابها جنبات الشارع طوال ساعات النهار.

كان شارع المتنبي يشكل ملتقى العديد من الأدباء والمثقفين العراقيين من باقي المحافظات الذين كانوا يزورونه كل يوم جمعة ويلتقون بزملاءهم في بغداد لكن حظر التجول الذى تفرضه الحكومة العراقية يوم الجمعة من كل أسبوع منذ العام ٢٠٠٦م منعهم من ذلك.

وقد شهد شارع المتنبى عملية إحراق مقصودة للكتب والمؤلفات قام بها أصحاب المكتبات وباعة الأرصفة احتجاجا على فرض حظر التجول في يوم الجمعة.

وأطلق المحتجون عبارة «حرائق المتنبي» على تجمعهم الاحتجاجي مطالبين الحكومة العراقية والمسؤولين برفع حظر التجول المفروض على العاصمة كل يوم جمعة والذي تسبب في شل الحياة الثقافية التي كان يشهدها الشارع في يوم العطلة الأسبوعية .. إلا أن ما جرى يوم الخامس من مارس كان ضربة قاسية جعلت رواد الشارع يمتنعون ويتراجعون كثيرا ويدركون وطأة زمن المذبحة .. وكنت واحدا من هؤلاء الرواد ولم تطأ قدماى الشارع إلا بعد حوالى عام ونصف تقريبا وتحديدا فى صيف عام ٢٠٠٨ عندما ذهبت بصحبة أصدقاء قرروا إنهاء حالة الجمود فى العلاقة مع شارع المتنبى بعد أن عادت إليه الحياة تدريجيا وارتدى حلة جديدة بعد غسل آثار الهجوم البربرى الذى خرق كل الأعراف والقوانين كنموذج صارخ ساد أيام عام ٢٠٠٧ .

وفى تلك الزيارة لشارع المتنبى التى تبعتها زيارات أخرى مارست أنا وأصدقائى كل طقوسنا المحببة .. التجول بين عناوين الأرصفة .. شراء الكتب .. الجلوس على مقهى الشابندر الذى يتصدر مدخله صور الشهداء الخمسة أبناء «حجى محمد الخشالى » وهو ما جعل صاحبه يطلق عليه « مقهى الشهداء» .. المشاركة

فى ندوات بيت المدى الثقافى الذى أسسه صاحب دار المدى المثقف فخرى كريم .. تناولنا كبّه السراى .. وختمنا الزيارة بجلسة هادئة على ضفاف دجلة .

فى زيارتى الأخير لشارع المتنبى قبل إنهاء مهمتى بالعراق صيف العام ٢٠١٠ شديد الحرارة كان الطريق إلى هناك ليس سهلا رغم كل ما يقال عن استقرار أمنى ورغبة السلطات العراقية فى إعادة فتح شوارع بغداد التى أغلقت ما يزيد على نصفها فقد اضطررنا بسبب إغلاق معظم الطرق وسط بغداد إلى سلوك طريق طويل مررت خلاله من ساحة التحرير وسط العاصمة ثم دلفت إلى نفق الباب الشرقى لأسلك طريق محمد القاسم السريع الذى يقطع الطريق فوق مقبرة تضم الكثير من رموز التاريخ العراقى مثل السهروردى والسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد مروراً بالشارع المؤدى إلى المستنصرية حيث تقاطع معهد الفنون الجميلة الذى تميزه دعامات القطار القديم وقد تم صبغها بألوان العلم العراقى هذا الشارع الذى كان ينطق بالحياة يقطعه الطلاب ذهابا وإيابا إلا أنه أصبح شارعا شبه مهجور غطى التراب مبانيه وصبغ أشجاره التى كانت زاهرة الخضرة بلون رمادى كئيب يوحى بطبيعة ما مرت به عاصمة الرشيد من فواجع زمن المذبحة بينما يقف مبنى جريدة الجمهورية ومطبعتها الشهيرة شاخصا يدلل على حال الخراب الذى أصاب الكثير من المبانى التى مثلت فى وقت من الأوقات علامات بارزة سياسيا وثقافيا .

ثم مررنا بجوار مقبرة الإنجليز إلى تقاطع الباب المعظم الذى كان يمثل قلب بغداد وقد مزقته الحفر والأخاديد التى تم حفرها لأسباب يقول مسئولو العاصمة أنها إعادة إعمار وتغيير بعض الطرق وبناء جسر جديد بالمنطقة مرورا بميدان « جراج الأمانة » حيث كان يقع مبنى محافظة بغداد قبل تدميرها إبان الغزو الأمريكى عام ٢٠٠٣ لنصل إلى مدخل شارع الرشيد العريق وتبدو معالم القبة المميزة لجامع الحيدر خانة .. وهنا يتوقف الطريق بنقطة تفتيش تابعة للجيش العراقى فشلت مع عناصرها كل محاولاتنا للمرور بالسيارة رغم ما أظهرناه من هويات « كارنيهات» وتصاريح تسمح لنا بالمرور فى مناطق ممنوعة على المواطنين .

اضطررت للسير فى أجواء حارقة من شهر أغسطس تجاوزت فيها درجة الحرارة ٥٠ درجة مئوية حتى وصلت إلى مشارف شارع المتنبى الذى كان يعج برواده الذين أعادوا إليه الروح وغامروا بخطورة التعرض لهجوم بربرى جديد .. بينما افترش بائعوا الثقافة الكتب بكافة عناوينها وموضوعاتها وتصنيفاتها فى مشهد أعاد لى ذكريات مضى عليها أكثر من سبع سنوات عندما كنت أرتاد الشارع العريق

خلال مهمتى الأولى بالعراق .. عاد المتنبى إلى شارعه مع حلة جديدة أضافتها الواجهات الحديثة التى زينها أصحابها على أنقاض حرائق هجوم العام ٢٠٠٧ بينما اكتفى شارع الحيدر خانة الذي يضم مقهى الزهاوى الشهير ومقهى حسن عجمى اللتين كانتا منارتين ثقافيتين وطالما شهدتا جلسات وندوات ونقاشات ومعارك فكرية ببعض الحداثة فى المظهر ومحلات المأكولات وأشهرها محل لبيع الكص العراقى / الشاورمة/ يحمل إسم السيدة أم كلثوم التى لا يغيب صوتها الصداح عن أى بقعة من شارع المتنبى فهنا تستمع إلى الأطلال وهنا تأتيك مقدمة « أنت عمرى » الرائعة بينما يردد بائع مع اسطوانته المحببة التى أشعل صوتها لجمهوره « بعيد عنك» .

غادرت شارع المتنبى الذى كنت أزوره لآخر مرة بعد أن أهدانى الحاج محمد كاظم الخشالى كتابا أعده عن شهداء المتنبى ومقهى الشابندر موسوما بإهداء رقيق بخط يده .. ألقيت نظرة وداع على مكتبات الشارع العريق وجدرانه ورموزه التى تقف شامخة تتحدى الزمن وعدت لأتذكر كيف استمرت العلاقة بين المتنبى وبغداد هذا الشاعر الذى تحدى نفسه ليقتله بيت شعر قاله ذات يوم « الخيل والليل والبيداء تعرفنى » .. وهكذا تحدى أصحاب شارع المتنبى من باعة ومتسوقين ومثقفين برابرة العراق الجديد فى زمن المذبحة .

٤ - انكسار الروح

لم يذرف العراقيون من الدموع بقدر ما ذرفوا عندما نشرت صورة (جسر الصرافية) الذي وقع مكسور الخاطر على صفحات مياه دجلة الخير ليرسم، لوحة فريدة فى زمن المذبحة لا يمكن نسيانها بعد أن فجر رسل الخراب الجسر الذى لا ذنب له سوى أنه يمشي عليه العشاق ويسمونه الجسر الحديدي (جسر الحديد انكطع من دوس رجليه) .

كان أحد أيام الخميس المصبوغ بلون الدم والخراب فى عام الانهيار الذى غابت فيه كل السلطات ماعدا سلطة القتلة والمخربين .. أتذكر يومها أننى استيقظت من نومى كما جرت العادة فى تلك الأيام واقفا على صوت انفجار هائل هز مدينة بغداد وما عليها جاء متزامنا مع صوت سقوط مدوى زمجرت له مياه نهر دجلة بعد تدمير أجزاء من الهيكل المعدني للجسربوسقوطه بعد أن قذف بعض السيارات في النهر.

كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة صباحا من يوم الخميس ١٢ / ٤ /

٢٠٠٧ عندما اهتزت نوافذ المكتب / مقر العمل والسكن / قبل أن تتصاعد سحب كثيفة من الدخان فوق منطقة واسعة بحيث انعدمت الرؤية بشكل كامل وتمكنت من تحديد موقع الانفجار بعد أن هرعت إلى سطح المبنى وأبلغني أحد مصادرى الأمنية الذى كان قريبا من موقع الانفجار أنه أدى إلى انهيار جزء كبير من الجسر يقدر بنحو ربعه وأن عارضتين من الجسر انهارتا وسقطتا في النهر، كما انهار جزء من وسط الجسر فضلا عن تضرر جزء من طرفه.

وتضاربت التقارير وقتها بشكل كبير حول طبيعة هذا الانفجار المروع وما إذا كان هجوما بشاحنة مفخخة قادها انتحارى فجر نفسه على الجسر أم أنه انفجار جرى بتلغيم الجسر ووضع المتفجرات فى مناطق مفصلية لينهار تماما أم أنه جرى تفجيره باستخدام قصف جوى .. وأيًا كانت طبيعة الانفجار إلا أنه أدمى قلوب العراقيين جميعا خاصة هؤلاء الذين يحتفظون بذكريات خاصة تربط حياتهم بعمر الجسر المديد الذي كان أحد رموز بغداد وانهار مع انهيار كافة الرموز فى زمن المذبحة .

وجسر الصرافية بناه البريطانيون عام ١٩٤٦ويعتبر أحد أجمل معالم بغداد ويبلغ طوله أربعمائة وخمسين متراً وعرضه ستة أمتار إضافة إلى ممر خاص للمشاة بعرض مترين، حيث سار الآلاف من المحبين والعشاق في ممر المشاة وعيونهم ترنو نحو بنات جامعة بغداد وأكاديمية الفنون الجميلة .

سمي جسر الصرافية شعبياً جسر القطار، وسماه من يعيش بقربه جسر العلوازية وجسر العيواضية وسماه أهل بغداد، كرخ ورصافة الجسر الحديدي وجسر الصرافية، والإسم الأخير هو الأشهر لكن تسمية (الجسر الحديدي) جاءت من أنه بني مركباً من قواطع حديدية ظاهرة وسقف بمقاطع حديدية على عكس جسور (العتيق) أو جسر المأمون ثم جسر الشهداء وجسر الصالحية الذي كان يسمى رسمياً جسر الملك فيصل ثم سمي جسر الأحرار وكان اسمه الشعبي جسر مود نسبة إلى القائد البريطاني الجنرال مود فاتح بغداد خلال الحرب العالمية الثانية وجسر الأئمة الذي يربط الكاظمية بالأعظمية وكان جسراً خشبياً مخيفاً قبل أن يبنى بشكل عصري وكان الغرض من إنشاء جسر الصرافية عبور القطار عليه ليوصل بين محطة قطار شرقي بغداد التي كانت تقع قريباً من كلية التجارة وإعدادية صناعة بغداد ومحطة قطار غربي بغداد التي كانت تقع في كراج العلاوي الحالي قبيل إنشاء محطة السكك بالكرخ التي تسمى بالمحطة العالمية.

كلفت شركة كوبريلايزرد البريطانية الاستشارية الهندسية بوضع تصاميم الجسر واستمر عملها عامين.

جسر في «سدني»

كان جسر الصرافية معداً للإنشاء في مدينة سدني في استراليا قبل أن تقرر وزارة الأشغال والمواصلات العراقية شراء هيكله الحديدي وتعهد إلى شركة كوبريلايزرد بإدخال التحويرات المقتضية على هيكله وبدأ العمل بتنفيذه أواخر سنة ١٩٤٦ من قبل شركة (هولو) البريطانية.

أطول جسر في العالم.. في حينه

بلغ طوال الجسر مع مقترباته ٢١٦٦ متراً بينما بلغ طول القسم الواقع على النهر (٤٥٠) متراً وكان بذلك أطول جسر في العالم في حينه.

تعثر بناء الجسر بسبب انتفاضة الوثبة سنة ١٩٤٨ واعتبره المواطنون الذين قاوموا عقد معاهدة بورت سموث بين العراق وبريطانيا جسراً يتم إنشاؤه لخدمة الأغراض البريطانية فقاموا بمهاجمة المهندسين الإنجليز والعمال الهنود الذين يعملون فيه ورموهم بالحجارة والقطع الحديدية كما تم رمي بعض قطعه الحديدية من النهر فتوقف العمل فيه لفترة.

وتمت العودة إلى العمل خلال وزارة السيد محمد الصدر واستمر حتى عام ١٩٥٢ حيث جرى احتفال رسمي كبير حضره السيد جميل المدفعي رئيس الوزراء حيث شاهد البغداديون لأول مرة قطاراً يسير على جسر حديدي على دجلة قاده المرحوم سائق القطار الأقدم السيد عبد عباس المفرجي وكان يشرف على سيره الفنان ياس علي الناصر باعتباره فنياً متخصصاً بسير القطارات الحديثة .

وجسر الصرافية هو واحد من مجموعة جسور تمتد على طول نهر دجلة.. جسور عبرت عليها المظاهرات الطلابية .. وجسور عبرت عليها جنازير دبابات الانقلابات العسكرية .. وجسور وقفت عليها دبابتان من دبابات القوات التي احتلت العراق في التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣ لينهار نظام كان يمتلك رابع جيش في العالم.

كان جسر الصرافية أحد ملاذات الأحلام للبغداديين بمختلف أعمارهم وانتماءاتهم وطبقاتهم وكان دائماً ثمة صبية يلعبون عند هذا الجسر ينتظرون أن يأتي القطار الذى يمر عابرا من سكك الشالجية ببغداد باتجاه محطة باب المعظم ثم باتجاه بعقوبة وكركوك وكان البغداديون يعرفون مواعيد مروره بالضبط، بل كان

مروره وصافرته المتميزة، المتعبة، تؤشر إلى الوقت الصحيح فيضبطون ساعات بيوتهم عليها .. كان الصبية يلوحون للقطار ثم يتسلقون الزلاقات الحديدة الساخنة سخونة شمس تموز بغداد حتى يصلوا إلى أعلاها ثم يجلسون مادين أرجلهم ليتزحلقوا على الحديد الحار في اللحظة التي يرتجف فيها الجسر تحت عجلات القطار، وثمة شرطي كان يجلس على كرسي عند كابينة خشبية يرد التحية على الماشين العابرين من الوزيرية إلى العطيفية وهو يلف سيجارته متطلعاً نحو السلم الحديدي الذي ينزل منه الناس إلى جرف دجلة إذا هم لم يكملوا المشي عبر ما تبقى من الجسر إلى الشارع الذي ينتهي عنده.

يسافر القطار على الجسر الحديدي بالجنود، يظل يمشي ولا يذهب بهم إلى جبهات الحروب ويظلون هم يلوحون من شبابيك العربات القديمة للعابرين على ضفاف دجلة ويبقى الشرطي العجوز يدخن سيجارة لفها منذ سنين ينفث دخانها وهو يبتسم لمن يلقي عليه التحية إلا أن هذا الانفجار عصف بسيجارة العجوز قبل أن يعصف به مع حديد جسر الصرافية .. ورغم ذلك ستبقى الذكريات معلقة على دعائم الجسر الغارقة في ماء دجلة الطيني الذي تعب من حمل أجساد الشباب إلى اليابسة.

يقول أحد شيوخ منطقة العطيفية الذى اقترب عمره من السبعين « إن عمري من عمر هذا الجسر، فمنذ أن تفتحت عيناي على الدنيا لم يفارق مشهده عيني. وأخشى أن يقتلني الحزن عليه كما دمره الانفجار الآثم » .

وإذا كان جسر الصرافية يحمل كل هذه الذكريات التى لم تتهاوى كما تهاوى الجسر فان المدلول السياسى والأمنى لتفجير الجسر حمل الكثير من المخاوف بعد أن تملكت مشاعر الرعب سكان بغداد من احتمال قيام المسلمين بتحويل نهر دجلة إلى خط تقسيم بين السنة والشيعة عبر تدمير جميع الجسور المقامة فوقه والتى تربط بين الرصافة « الجانب الشرقى » والكرخ « الجانب الغربى » .. حيث تعيش أغلبية سنية على الضفة الغربية للنهر التى تضم المنطقة الخضراء الخاضعة لحراسة مشددة والتي تؤوي المنشآت العسكرية والدبلوماسية الأمريكية ومباني الحكومة العراقية وقصور صدام حسين. وعلى الضفة الشرقية للنهر في الرصافة تعيش أغلبية شيعية.

ويربط جانبى بغداد ١١ جسرا هي الائمة، الأعظمية، الشهداء، الجمهورية، الأحرار، السنك، ١٤ تموز، الجادرية، ذو الطابقين، الرشيد، الحديد أو الصرافية وتم إغلاق بعض هذه الجسور مثل ١٤ تموز والشهداء والأئمة وبعضها حدد السير فيه للمشاة فقط مثل الرشيد.

وقد جعل تفجير جسر الصرافية الناس يتحدثون بنبرة تشاؤمية عن «حرب الجسور» التى تنذر بتقسيم بغداد إلى « كرخ سنى » و«رصافة شيعية » كما لو كان تكرارا لقصف جسر موستار الأسطوري الذي أصبح رمزا عالميا للحرب الأهلية في البوسنة والهرسك التى استمرت من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥ [1].

٥ - كيف حدث هذا ؟؟

بعد عدة ساعات من تفجير الجسر الذبيح الذى كان إيذانا بسياسة العزل الإجبارى بين جانبى بغداد / الكرخ والرصافة/ هز العاصمة المنكوبة انفجار أخر لا يقل عنفا بعد تنويعات من الانفجارات الاعتيادية التى كانت تميز تلك الأيام من زمن المذبحة وسرعان ما تناقلت الفضائيات الانفجار مع صور حيه من موقعه مترافقة مع تعليقات المراسلين الذين ترجمت أصواتهم حجم الصدمة مما جرى .. وجاءت عبر قناة « الحرة عراق» صورة صديقى على الياسى الذى كان يغطى وقائع جلسة البرلمان فى هذا اليوم وقد أصيب بجروح طفيفة جراء الإنفجار الذى كاد أن يودى بحياته لينضم إلى سلسلة العابرين فى مواكب الموت المجانى التى ميزت أيام المذبحة .. وكان الخبر الذى تناقلته وسائل الإعلام على الهواء مباشرة فى تغطية فريدة من موقع الحدث يقول « قتل ٨ أشخاص، بينهم نائبان عراقيان، وأصيب آخرون اليوم الخميس في هجوم انتحاري داخل مبنى البرلمان الواقع في المنطقة الخضراء شديدة التحصين بالعاصمة بغداد والتي تضم مقرات الحكومة العراقية وسفاراتي بريطانيا والولايات المتحدة ».

وقال الميجر جنرال، وليام كالدويل، «يبدو وفقًا لراويات شهود العيان أنها كانت سترة ناسفة. . الإحصاء الأولى للضحايا حتى الآن يقدر بنحو ٨ قتلى ونحو ٢٠ جريحًا ».

وصرح مسئول في البرلمان وشاهد عيان بأن الانفجار وقع في مطعم البرلمان بينما كان عشرات النواب يتناولون فيه طعام الغداء.

وأفاد مصدر أمني بأن أحد النائبين القتلى هو محمد عوض، العضو في جبهة الحوار الوطني التى يتزعمها الدكتور صالح المطلك (سني)، ويمثلها ١١ نائبا في البرلمان، المؤلف من ٢٧٥ مقعدا.

---

(١) تمت إعادة بناء جسر الصرافية فيما بعد خلال عام ٢٠٠٩، إلا أنه لم يعد مثلما كان رمزًا للذكريات وملاذًا للعشاق .

وأفادت قناة «العراقية» التلفزيونية الحكومية في شريطها الإخباري بأن نائبين اثنين قتلا، وأن أكثر من عشرة نواب آخرين أصيبوا، دون ذكر مزيد من التفاصيل. ومن جهته، أفاد المصدر الأمني بأن عشرة من مسئولي الأمن أصيبوا كذلك في الهجوم.

وأكد مسئول أمني في موقع الحادث أن التفجير نتج عن هجوم نفذه انتحاري باستخدام حزام ناسف، مشيرا إلى تناثر دماء وأشلاء بشرية في مطعم البرلمان حيث وقع الانفجار.

ونادرا ما تمكن المسلحون من اختراق نقاط التفتيش العديدة نحو المنطقة الخضراء لشن هجمات رغم أنهم كثيرا ما يطلقون قذائف مورتر وصواريخ على المنطقة.

وفي الآونة الأخيرة ذكر الجيش الأمريكي أنه جرى العثور على سترتين معبأتين بالمتفجرات في المنطقة المترامية الأطراف التي تضم مبان حكومية ومبنى السفارة الأمريكية.

والطريف فى الخبر هو ما يلى «أدان الرئيس الأمريكي، جورج بوش، التفجير، مشدداً على أن الولايات المتحدة ستواصل وقوفها إلى جانب حكومة بغداد».

وقال بوش للصحفيين بعد اجتماع في البيت الأبيض حول مشروع قانون التعليم: «أدين هذا العمل بشدة». وقال الرئيس الأمريكي: إن رسالته إلى الحكومة العراقية هي «أننا نقف معكم».

وحتى يعرف القارىء لماذا يثير هذا التصريح الضحك حتى البكاء لما يجرى وكيف تسيل دماء الضحايا من التفجيرات بينما تسيل دموعهم من التصريحات التى تعقب تلك التفجيرات فلابد من الإشارة إلى المكان الذى يقع فيه البرلمان العراقى الذى شهد الهجوم الانتحارى الذى سيطرح سلسلة تساؤلات عن كيفية دخول هذا الانتحارى ذلك المكان وبهذه الكمية من المتفجرات وكيف تمكن من تنفيذ جريمته بعد اختراق تلك السلسلة الطويلة من الإجراءات الأمنية المعقدة للوصول إلى مبنى البرلمان فما بالك بمنطقة الانفجار داخل المبنى المحصن الذى يقع داخل منطقة هى الأشد تحصينا فى كل أنحاء العراق هى المنطقة الخضراء .

٦ - المنطقة الخضراء

عندما يمر أي شخص بالقرب من أسوار المنطقة الدولية في بغداد والتي تحمل تسمية (المنطقة الخضراء) يحدق بدهشة نحو هذه الجدران الأسمنتية العالية المدججة بأبراج للمراقبة يطل منها القناصة الأمريكيون الذين يوجهون فوهات

بنادقهم الدقيقة الرصد والسريعة الإطلاق نحو جهات معينة، كما يمكن للعابرين عند التدقيق فى أبراج المراقبة المحيطة بتلك الأسوار العالية أن يروا بوضوح أعين القناصة مشدودة إلى عدسات «نواظير» دقيقة ترصد كل حركة وأصابعهم ملتصقة بزناد البنادق .. حيث ينتشر هؤلاء القناصة فوق أسطح أبنية فندق الرشيد ومجلس الوزراء ومجلس النواب (البرلمان العراقي)، ووزارة التخطيط السابقة وهم لا يتورعون على قنص ما يعتقدون أنه يمثل أدنى خطر على سكان الحصن المنيع .

ويتقاسم المسؤولية عن حماية المنطقة الخضراء إلى جانب القناصة .. كلاب مدربة على شم رائحة المتفجرات وقوات أمريكية خاصة ،.. و هناك أيضا في الداخل قوات أمريكية وقوات متعددة الجنسيات بالإضافة إلى شركات الحماية الخاصة التى ينتمى غالبية أفرادها إلى جنسيات لا تتحدث الإنجليزية أو العربية من التبت أو تايلاند أو جورجيا أو شيلى بالإضافة إلى جنود أفريقيين غالبا من أوغندا وغيرها يجيدون الإنجليزية ويرحبون جدا بمن ينتمى إلى القارة السمراء حيث أن وجهى أصبح معروفا لديهم وينادوننى بكلمة « إيجبتو » وهم يبتسمون إلا أن الخضوع للتفتيش بالأصابع الخشنة لا يفرق بين أفريقى وآسيوى أو بين مصرى وعراقى .. فالجميع يخضع لتحسس الأصابع الخشنة على كافة مناطق الجسم.

الاسم الرسمي للمنطقة الخضراء هو المنطقة الدولية وسوف تجد اللافتة التي تحمل هذا الاسم عند نقاط التفتيش المنتشرة عند البوابات وفي داخل المنطقة الدولية، وهي كما معروف المنطقة الأكثر حماية في العراق كله بسبب وجود مكاتب ومقرات سكن السفراء الأجانب وسفاراتهم، خاصة السفارتين الأمريكية والبريطانية، وباستثناء السفارتين الألمانية التي تقع في حى المنصور غربى بغداد والفرنسية التي تقع بنايتها قرب ساحة كهرمانة وسط العاصمة ، فان جميع السفارات الغربية تقع مقراتها ومواقع سكن سفرائها في حدود المنطقة الخضراء بالإضافة طبعا إلى قصور ومساكن كبار المسؤولين العراقيين بدءا برئيس الحكومة ومرورا بعدد كبير من الوزراء وأعضاء مجلس النواب ونزولا إلى حرس وسائقى وفرق حماية رئيس الحكومتين الحالية والسابقة .. أما رئيس الجمهورية جلال طالباني فهو يقيم مع بعض مستشاريه خارج المنطقة الخضراء فى مناطق تخضع لحراسة ونفوذ قوات حرس إقليم كردستان « البيشمركة» وتحديدا فى قصر السلام .

وتحتل المنطقة الخضراء مساحة أكثر من ثلاثة أحياء وجسر المعلق وتمتد

حدودها من حي القادسية وحي الكندي غربا، وجسر الجمهورية ومتنزه الزوراء شمالا، ويحتضنها نهر دجلة من الشرق والجنوب وبذلك تحتل مساحة حي كرادة مريم، وحي التشريع، وأم العظام، إضافة إلى جزء كبير من متنزه الزوراء (اكبر متنزه شعبي في بغداد) وساحة الاحتفالات الكبرى بما تضم من تماثيل ونصب وقاعات سينما ومسارح وصالات عروض تشكيلية، كما يدخل ضمن المنطقة طريق القادسية السريع ونفق فندق الرشيد والفندق ذاته أيضا والمساحات المحيطة به، وتعبر حدودها إلى جانب الرصافة حيث تسيطر على الجزء المحيط بالجسر المعلق في جهة منطقة الرواية في الكرادة الشرقية.

وللمنطقة الخضراء ثلاثة مداخل رئيسية، أي متصلة بالشوارع العامة يمكن الدخول إليها مباشرة من الشارع العام، وأهم هذه المداخل هي بوابة جسر الجمهورية، أو التي تقع قبيل هذا الجسر من جهة الكرخ بالقرب من بناية وزارة التخطيط سابقا، أو كما يطلق عليه مدخل وزارة الدفاع أما المدخل الثاني فيقع قرب فندق الرشيد الذى يقيم فيه الضيوف المهمون وبعض أعضاء البرلمان والمسئولين وعدد من الصحفيين الأجانب وبعض السفراء وهو المقر المؤقت للسفارة المصرية وسكن السفير وأعضاء البعثة من دبلوماسيين وموظفين قبل أن تنتقل إلى مبنى خاص في يونيو ٢٠١٠ داخل المنطقة الخضراء ، وهذا المدخل يقودك إلى بنايتي رئاسة الوزراء وقصر المؤتمرات الذي يتخذ منه مجلس النواب (البرلمان) العراقي مقرا له، ويقع المدخل الثالث عند بداية الجسر المعلق من جهة الرصافة.

وهناك أيضا مدخل آخر يحتاج إلى موافقات أمنية للوصول إليه، وهو مدخل القادسية.

عند كل مدخل تستقر قوة أمنية كبيرة تتألف من أفراد من القوات الأمريكية مدججين بالأسلحة المدعومة بدبابة أو قوة مدرعة ومترجمين وكلاب خاصة لشم رائحة المتفجرات إلا أنه بعد الاتفاقية الأمنية بين العراق والولايات المتحدة فقد تغير النظام وأصبح هناك تواجد لقوات عراقية وقوات من البيشمركة بالإضافة إلى جنود أفريقيين ذوى بشرة سوداء من عناصر شركات الأمن الخاصة .. بينما يقتصر تواجد القوات الأمريكية على تواجد رمزى .

ولعل أهم ما في موضوع المنطقة الخضراء هو الدخول إليها، فهناك من يحمل البطاقات (الباجات) التي تحمل تواقيع وتراخيص من السفارتين الأمريكية والبريطانية ورئاسة مجلس الوزراء مع تخويل بالدخول في أي وقت شاء ومن أية بوابة يريد ومنحه الحق باصطحاب ضيف إلى داخل المنطقة..وحاملو هذه الباجات

يعدون من المحظوظين جدا فهناك من يحمل باج (بطاقة) موقعة من قبل إحدى السفارتين فقط أو من رئاسة مجلس الوزراء إضافة إلى توقيع إحدى السفارتين، البريطانية أو الأمريكية، واضعف هذه البطاقات الموقعة من قبل رئاسة مجلس الوزراء فقط إذ لا تخول صاحبها أو حاملها إلا الدخول إلى بناية المجلس.

وتدل ألوان البطاقات، أو الباجات على أهميتها، وهي تبدأ بالزرقاء ثم الخضراء فالصفراء والحمراء، على أن جميع حاملي البطاقات ومهما كانت درجاتهم الوظيفية، باستثناء الوزراء، يخضعون لتفتيش دقيق وفي أحيان كثيرة يكون تفتيشا مذلا بما فيهم أعضاء البرلمان الذين يخضعون لتفتيش دقيق تساهم فيه الكلاب البوليسية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المناطق، وقبل أن تتحول إلى منطقة دولية كانت مفتوحة أمام حركة الناس والباصات والسيارات الاعتيادية حتى السنوات الأولى من الثمانينات، ثم بقيت مفتوحة أمام حركة السيارات الصغيرة باستثناء أجزاء بسيطة، وكانت مأهولة بالسكان من غير العاملين في القصر الجمهوري من أصحاب العقارات الكائنة هناك.

ولعل من الواجب ذكره هنا أنك لا تقرأ أبداً عند واجهات المداخل أية عبارة ترحيب سواء باللغة العربية أو الإنجليزية، بل هناك عبارات تحذير شرسة من موت محدق يحيط بمن يقترب من مداخل هذه المنطقة المحرمة، مثل «قف قوة مميتة أمامك» أو «قف أنت على مقربة من قوة سريعة الإطلاق» و«لا تقترب أكثر من ٢٠٠ مترا.. قوة مميتة»، هذا يضاف إلى ملامح وجوه عناصر القوات الأمريكية أو غيرها من الجنسيات، بما فيها العراقية التي لا تنم عن أية مشاعر ارتياح لوصولك إلى أي مدخل من مداخل المنطقة الدولية.

لافتة حديدية بلون أسود تحمل تعليمات مشددة بلون أبيض، وبعضها مشددة للغاية بلون أحمر تستقبل عادة الزائر إلى المنطقة الخضراء.. وبينما تسمح البوابات بالدخول للسيارة المرخص لها فان المواطن العادى حتى الصحفى فانه يعبر إلى داخل تلك المنطقة سيرا على الأقدام عبر سلسلة من نقاط التفتيش منها جهاز السونار الذى يكشف العظام.

بينما تتمتع سيارات القوات الأمريكية وسيارات الشيفروليه رباعية الدفع البيضاء والسوداء ذات الزجاج الأسود الداكن تماما والذي يمنع رؤية من في داخل السيارة، بالدخول السريع إلى المنطقة الخضراء تصحبها سيارات تحمل أشخاصاً مدججين بالأسلحة ويضعون نظارات شمسية سوداء موجهين فوهات بنادقهم نحو

الآخرين وركاب هذه السيارات لا يقلون خطورة عن الجنود الأمريكيين، اذ يطلقون النار كيفما شاؤوا خاصة خلال مرورهم بالشوارع والأسواق العامة لزرع الرعب في قلوب الناس، وليجبروا سائقي السيارات الأخرى على أفراغ الطريق لهم وهذه السيارات تستخدمها الشركات الأمنية الخاصة صاحبة السجل الطويل فى جرائم القتل لمجرد الشك وعلى رأسها « بلاكووتر » .

ولأن الانتحارى الذى دخل إلى البرلمان شخص بالتأكيد غير عادى فأنه لابد وأنه دخل من الأبواب التى تسمح بدخول السيارات وهى أيضا تخضع لإجراءات أمنية دقيقة ترافق الدخول إلى المنطقة الخضراء. ويجب على ركاب السيارات حاملى الباجات أو ضيوفهم أولا إغلاق الهواتف الجوالة، ثم فتح غطاءها وعزل البطاريات ووضعها في مقدمة السيارة ثم الترجل والابتعاد عن السيارة حتى يتأكد أحد الجنود الأمريكيين الذى يوجه فوهة بندقيته نحو العابرين من أن الموبايلات معزولة عن بطارياتها، وأنهم لا يحملون أي سلاح ثم يتقدم العابرون إلى نقطة التفتيش.

وتقتضي التعليمات أن يحمل الداخل إلى المنطقة الخضراء جواز سفر وبطاقة هوية أخرى ، يتم مصادرتها مؤقتا من الضيف الذى لا يحمل باجا للدخول وإعادتها له عندما يترك المنطقة الخضراء في تصرف يجبر الضيف على عدم البقاء طويلا في الداخل ، وإذا ما بقيت البطاقة أو الجواز لثلاثة أيام لديهم، فإنهم يتلفون الجواز أو البطاقة ويحققون مع المرافق الذي ادخل الضيف على مسؤوليته و خلال هذا الوقت يقوم الكلب المتخصص فى شم رائحة البارود أو الأسلحة بمهمته حيث يصطف طابور طويل من السيارات أمامه ، ولا أحد يستطيع أن يدفع الكلب للاستعجال فهو «يؤدي عمله على أحسن ما يكون» وعلى الجميع أن ينتظر مزاج الكلب «الشمام» حتى يسمح لهم بمواصلة الطريق إلى داخل المنطقة الخضراء.

ويبلغ الراتب الشهري المخصص لهذا الكلب ثلاثة آلاف دولار تقريبا، ويتم تخصيص جندي لمرافقته وسيارة كبيرة ذات دفع رباعي ومكيفة ينتظر أو يستريح فيها، بينما يؤدي عمله أما سعره فيتراوح ما بين ٣٥٠ إلى ٤٠٠ ألف دولار أمريكي ويتم دفعها طبعا من أموال النفط العراقى مثل معظم مخصصات المحتلين .

أما المنطقة الدولية من الداخل فهى عبارة عن مقاطعات ومناطق، مقسمة إلى حارات بواسطة جدران من الكونكريت «الخرسانة المسلحة» ، وبوابات حديدية وحراسات مشددة. وهذا يعني ان الدخول إلى المنطقة الخضراء لا يعني بأي حال من الأحوال حرية التجوال، ولكن التوجه إلى منطقة محددة، وعندما يتطلب الأمر

دخول بوابات أو الوصول إلى أقسام أخرى، فيجب أن يكون هناك دليل أو مرافق آخر يحمل بطاقة (باج) تخوله دخول هذه المنطقة.

أما دخول مبنى مجلس النواب (البرلمان العراقى) فانه يتطلب المرور عبر سلسلة إجراءات معقدة والحصول على موافقات وباجات فما بالك فى التحرك داخله وهو ما يعنى أن الانتحارى الذى فجر نفسه داخل قاعة كافيتيريا البرلمان كان يحظى بتأمين عالى المستوى والدقة ويتمتع بحرية الحركة إلى الدرجة التى تجعله يجلس فى كافيتيريا البرلمان وهو يحيط جسده بحزام ناسف يحمل كل هذه الكمية من المتفجرات التى مازال أمر دخولها إلى تلك النقطة العميقة فى بحر المنطقة الخضراء أمرا شديد الغموض ربما تنكشف أبعاده فى وقت لاحق رغم أنه تم عمليا توجيه اتهام رسمى إلى محمد الدايني عضو البرلمان الهارب بأنه هو المخطط والمنفذ لتلك العملية الغامضة .. إلا أن الأسئلة الحائرة تزداد بعد توجيه الاتهام إلى شخص بعينه عن هذا الهجوم المريب .. وأول تلك الأسئلة كيف تمكن الدايني من إدخال هذا الانتحارى بهذه الكمية من المتفجرات إلى هذه المنطقة .. وكم عدد نقاط التفتيش الحصينة التى عبرها للوصول إلى تلك النقطة وكم عدد الذمم التى اشتراها لتسمح له بالعبور وما هى جنسياتها .. وما هى تلك السلطة التى عطلت أجهزة السونار وأنوف كلاب الشم ومنعت الأيادى الخشنة لعناصر نقاط التفتيش من تحسس جسد الانتحارى الملفوف بحزام ناسف كما تتحسس أجسادنا المرهقة جيئة وذهابا كلما ساقتنا ظروف العمل إلى التواجد داخل إحدى حارات المنطقة الخضراء .

ربما تكون الإجابات اشد صعوبة من الأسئلة الحائرة .. وربما تتيح الظروف وتقلبات الأوضاع بالكشف عن هذا السر وغيره من أسرار زمن المذبحة .. إلا أن الشيء الوحيد المؤكد فى هذا الأمر هو أن سلطان القاتل فى زمن المذبحة كفيل بتخطى كل الحصون والقواعد والترتيبات وأن يشترى الضمائر التى تبلدت حتى يقتل البشر بعد أن قتل الشجر والحجر .

٧ - مئذنة الفتنة

يتسارع الزمن وتتسابق الأحداث فى عام ٢٠٠٧ لتتجاوز كافة الخطوط الحمراء التي طالما توعدت بتجاوزها فرق الموت والجماعات المسلحة لتستطيع أن توسع نفوذها وترغم الحكومة العراقية والأمريكية على التنازل لمتطلباتها.

ومن بين هذه الأحداث التى اخترقت حدود الخطوط الحمراء تفجير مئذنة

المرقدين الشيعيين المقدسين فى بلدة سامراء السنية التابعة لمحافظة صلاح الدين / مرقد الإمام العاشر على الهادى والحادى عشر الحسن العسكرى / وما تبقى من القبة التى أطلق تفجيرها فى ٢٢ فبراير عام ٢٠٠٦ موجة من العنف الطائفى كادت أن تقود العراق إلى حرب اهلية شاملة بعد مقتل وإصابة عشرات الآلاف وإحراق المئات من المساجد والحسينيات .

في الساعة التاسعة من صباح الأربعاء ١٣ يونيو حزيران/٢٠٠٧ الموافق ٢٥ جمادي الأول/١٤٢٨ استيقظ العراقيون واستيقظت معهم على كارثة جديدة من كوارث العام ٢٠٠٧ تنذر بانفلات الأمور بشكل أوسع بينما تلوح سحب الحرب الأهلية الشاملة فى الأفق ومع هذا التطور الخطير وتزايد معدلات الصراع على السلطة والنفوذ بين الشرعية القائمة التى لا تملك السيطرة على الأرض ممثلة فى الحكومة والشرعية المستندة إلى قوة السلاح والتى تملك الأرض وتفرض قانونها الخاص فى زمن المذبحة ويتزامن هذا في الوقت الذى يشتد فيه الاقتتال مابين الفصائل السنية مع حرب التصفيات الجسدية والعمليات الانتقامية خاصة من جانب تنظيم القاعدة الذى بدأت الأرض تهتز تحت أقدامه ويفقد ملاذاته الآمنة فى مناطق العشائر السنية فى الأنبار وصلاح الدين وديالى .

وكما كان تفجير القبة الذهبية غامضا حيث جرى فى منطقة تحظى بحماية أمنية مشددة من جانب قوات عراقية وأمريكية وحماية شعبية من جانب سدنة المرقد المقدس الذى يتولى حمايته أهالى سامراء السنة منذ مئات السنين .. كان تفجير المنارة التي أفلتت من التفجير الأول غامضا خاصة وأنه تم تشديد الحراسة على المرقد المقدس ومنعت القوات العراقية والأمريكية الوصول إليه .. فكيف تم التفجير الذى يتطلب وقتًا طويلا حتى يتمكن المهاجمون من تلغيم الهدف وأين كانت عناصر الحماية العراقية والقوات الأمريكية المدججة بكل أنواع الأسلحة وتقف متحفزة فى شوارع ضيقة تؤدى إلى المرقد المقدس الذى يضم فى جزء منه ما يعرف ب « مغيب المهدى المنتظر» الذى يعتقد الشيعة الجعفرية بأنه غاب فى هذا القبو ومنه سيعود فى آخر الزمان لينشر العدل ويقضى على الفتنة .. أى أن منفذى التفجيرين يعلمون جيدا مدى قدسية هذا المكان أكثر من أى مرقد اخر مقدس لدى الشيعة فى العراق أو العالم لأن تدميره يعنى ضرب أصل العقيدة الشيعية وهو كفيل بإحراق الأخضر واليابس .. إلا أن من عاش أيام المذبحة وخاصة عام ٢٠٠٧ وهو عام الدمار و الانهيار يدرك بسهولة أن خرق كل القواعد والقوانين كان أحد الظواهر التى ميزت زمن المذبحة .

وما جرى في سامراء من تفجير آخر يعتبر الثاني من نوعه لـنفس المرقـدين حيث فجر مسلحون مجهولون، منارتي المزار الذي يحتضـن مرقـدي الإمـامين الحسن العسكري وعلي الهادي في مدينة سامراء، وفق ما أكدته الشرطة العراقية ومسؤول أمني.. وقال مصدر أمنى أنه سبق التفجير اندلاع اشتباكات بين عناصر الشرطة ومسلحين، تبعها نجاح المسلحين في دخول المزار وزرعـه بالألغـام قبـل تفجيره موضحاً إن الانفجار الأول أدى إلى انهيار المئذنة اليمنـى للمرقـد تبعـه انفجار ثان تسبب بانهيار المئذنة اليسرى.

ومع انطلاق التحذيرات التى أشاعت أجواء هيستيرية مـن المخـاوف مـن أن التفجير قد يؤدي إلى مزيد من الاقتتال المذهبي في البلاد سرعان ما حمل رئـيس الوزراء العراقي نوري المالكي تنظيم القاعدة وأنصار الرئيس السابق صدام حسين « من الصداميين والتكفيريين وأزلام النظام السابق « المسؤولية عن الهجوم معربا عن اعتقاده بأن مساجد أخرى سيجري استهدافها وانه طلب من قوات الأمن العراقيـة تكثيف التدابير الأمنية حولها .. وقد أدى ذلك إلى شيوع حالة من الاحتقان والتوتر الشديدين خاصة فى العاصمة بغداد ، فيمـا تجمـع المواطنـون حـول المسـاجد والحسينيات، بانتظار ما سيصدر عن مقر المرجعية الشيعية في النجف الـتي اتجهـت إليها الأنظار ، لتطوق هذه المحنة الجديدة التي يمكن أن تعصف بما تبقى من البلاد.

وانتشرت القوات الأمنية والعسكرية في شوارع بغداد خشية من تجدد مواجهـات العنف الطائفي على غرار تلك التي شهدتها بغداد في أعقاب تفجير قبة سـامراء في فبراير /شباط من العام ٢٠٠٦ .

وبالرغم من حالة الذهول التي خيمت على العراق من أقصاه إلى أقصـاه، إلا أن الدعوة للتهدئة كانت سيدة الموقف الصعب الذي وجد فيه العـراق والعراقيـون أنفسهم حائرين بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على لقاء المالكي – نجروبـونتي، الذى أمهل الحكومة العراقية شهراً واحداً لإنجاز تعهداتها بالقضاء على الميليشيات وفرق الموت بعد أن أشارت تقارير شبه مؤكدة عن دعم خفى تقدمه جهات نافـذة فى حكومة المالكى لتلك الميليشيات وخاصة جيش المهدى .

٨ - طار الحمام .. حط الحمام

بعد ساعتين من تفجير مئذنة المرقد المقدس فى سامراء أعلنت الحكومة فرض حظر مفاجىء على التجوال حتى إشعار آخر تحسبا لوقوع أعمال عنف على غرار ما جرى فى فبراير عام ٢٠٠٦ بعد تفجير القبة الذهبية للمرقد .. ومع الانتشـار

الكثيف للقوات الأمنية وتحليق المروحيات الأمريكية فى سماء بغداد هرع الناس إلى بيوتهم وانسحبوا مبكرا من الدوائر الحكومية وأغلقت المحال التجارية أبوابها وغدت بغداد مدينة أشباح عند حلول الظهر .

وفى تلك الأثناء وعندما كان الناس يفكرون فى القادم الأسوأ ويستعدون لأيام أشد قسوة فى ظل أجواء من الرعب فرضتها الأحداث .. كنت أنا فى عالم آخر فرضته على الأحداث أيضا ولكنه عالم يحتوى أفكارا أخرى ويتوقع سيناريوهات أخرى غير تلك التى يتوقعها العراقيون الذين يرتعدون خوفا داخل بيوتهم .

كان اليوم التالى للانفجار وهو يوم الخميس هو موعد سفرى إلى القاهرة فى أول أجازة بعد ١١ شهرا قضيتها فى أتون المذبحة وكانت حسابات المكسب والخسارة والخطورة والألم والقتل والرعب غائبة عن قاموسى فى هذا اليوم بعد أن أعددت العدة للسفر إلى القاهرة .. كانت يدى مربوطة إلى حقيبة السفر وعيونى معلقة على طريق المطار .. كنت قد أفرغت ثلاجتى من الطعام وتخلصت مما تبقى من بنزين للمولد مع الحفاظ على كمية تكفى حتى صباح اليوم التالى وأقرضت صديقا لى « جالون السولار » المتبقى .. واحتفظت بزجاجتى مياه لغرض الشرب وبعضا من الشاى والسكر يكفى ليلة واحدة .. فأنا ذاهب فى إجازة سوف تستمر ٤٥ يوما ولا حاجة لى بتلك الأشياء ولا مبررلبقائها نهبا لحر الصيف وما يقاسمنى الشقة من حشرات وقوارض فى المبنى المهجور الذى يقع فيه مقر عملى وإقامتى .

وبعد ما جرى اضطربت كل الحسابات التى وان كانت تبدو بسيطة إلا أنها كارثية . فلا يوجد موعد محدد لرفع حظر التجوال ومن ثم فتح المطار حتى أتمكن من مغادرة بغداد .. ولا توجد محلات يمكننى أن أتزود منها ما أريد من احتياجات سواء للأكل أو الشرب أو لتشغيل مولد الكهرباء .. لا يوجد من ألجأ إليه فى تلك الظروف بعد أن لزم الجميع بيوتهم انتظارا لما تأتى به الأيام من أحداث فى ظل هذا التوتر المرعب .

امتدت حدود المكان واستطالت ساعات ذلك اليوم وأنا بين فكى الرحا .. لا مغادرة لبغداد بفعل حظر التجوال .. ولا مقومات بسيطة للحياة من مأكل ومشرب .. ولا وجود لبشر فى الشوارع التى خلت من الناس تاركين أماكنهم لقوات أمنية متحفزة على الأرض ومروحيات عسكرية تثير الضجيج فى السماء .. استسلمت لشاشة التليفزيون لمتابعة ما يجرى فى حدود المكان والمربع الإجبارى

المفروض إلا أغادره تحت أى ظرف .. تواترت الأنباء عن وقوع بعض أعمال العنف والاشتباكات وسط نشاط محموم لعناصر الميليشيات .. تناسيت ما ينتظرنى من مشاكل لوجستية ومارست مهمتى فى المتابعة عبر الهواتف وشاشة التلفاز ومواقع الانترنت ولم أدرى إلا بوصول اليوم إلى نهايته على دوى عدد من الإنفجارات وأصوات القذائف وطلقات الرصاص المتقطعة.

مستلقيا على فراش القلق احتضنت هواجسى المشتعلة وآمالى المرتعشة فى السفر إلى القاهرة حتى صباح اليوم التالى حيث كان على أن أوفر طعاما ومياه لأبقى على قيد الحياة والاقتصاد فى استهلاك المولد الكهربائى حتى يستمر إلى أطول وقت ممكن .. وعندما دوى صوت انفجار هرعت إلى سطح البناية لأتبين موقعه وفى الطريق إلى سطح المبنى وقعت عينى على أحد الأركان التى يستخدمها الحمام كعش لمبيته وقد عاد من رحلته فى البحث عن قوته مبكراً لأن أرض سمائه لم تعد آمنة بفعل التحليق المكثف للمروحيات والطائرات الحربية الأمريكية .. وكان القرار أن يكون طعامى خلال اليوم وما تبقى من أيام على فك حظر التجوال هو الحمام .. وعندما تجولت فى شقق العمارة المهجورة تماما اكتشفت المزيد من أعشاش الحمام .. وتمكنت من الإمساك بالكثير الذى لم يقاوم كثيرا وقمت بإعداد طعام يكفينى ليوم كامل .. وشعرت براحة كبيرة لأننى وجدت خزينا لطعام يكفينى لأيام إذا ما ساءت الأمور واستمر حظر التجوال ..حرصت على إبقاء هاتفى المحمول به قدر كاف من الشحن حتى يستمر إتصالى مع العالم الخارجى وأتمكن من الحصول على الأخبار وإرسالها إلى المركز الرئيسى للوكالة عندما ينتهى البنزين المتبقى وتنقطع كهرباء المولد .

وفى صباح يوم الجمعة كان قد تم الاعلان عن فك حظر التجوال اعتبارا من الأحد بعد أن اطمأنت القوات الأمريكية والعراقية إلى أن الأمور لن تشهد المزيد من التدهور الأمنى وأن سابقة ٢٢ فبراير ٢٠٠٦ وما جرى فيها من انفلات أمنى لن يتكرر بنفس الطريقة .. وأدى هذا الاطمئنان إلى إعادة فتح بعض المحال أبوابها فى المناطق خاصة محال « السوبر ماركت» وهو ما مكننى من الحصول على طعام ومياه واقتراض بعض البنزين من صاحب محل قريب كنت أحد زبائنه لتشغيل المولد .

وما أن انفرجت الأزمة وتم رفع حظر التجوال وإعادة فتح مطار بغداد حتى كنت أول الواصلين إلى هناك انتظارا لإقلاع أول طائرة إلى القاهرة يرافقنى شعور بالزهو لاجتياز الأزمة مع دعوات لم تفارق لسانى حتى وصلت إلى مطار القاهرة .. «الحمد لله الذى أطعمنى من جوع وآمنى من خوف» .. وهى الدعوة التى لازمتنى

طوال الفترة التى قضيتها بالعراق فى زمن المذبحة .

٩ - أبو بدور

يروى أبو بدور أنه فى صيف ٢٠٠٧ وبعد جلسة حوار مع أصدقاء عن الجماعات المسلحة وهل انتماؤهم للوطن أم للدين أم لأشياء أخرى باعتباره من منطقة الكاظمية التى تضم مرقد الإمام موسى الكاظم وهو الإمام السابع لدى الشيعة وله امتدادات عشائرية وعائلية قوية تتيح له التحدث بحرية وكان متحررا من الطائفة وما تمليه من ولاءات تمنع الخوض فى بعض الأمور أو المساس ببعض الأشخاص .. وكان رأيه واضحا فى قضية الصراعات الطائفية وهو الاستفادة الاقتصادية من قبل المنتمين إلى المجموعات المسلحة وغيرها من الانتماءات والدليل هو تاريخ المتصارعين .. وكانت الجلسة فى مقهى شعبى حيث روى قصة أحد الأشخاص الذين يطلقون عليهم صفة قيادى فى تلك المجموعات المسلحة وكان يعرفه فى طفولته كلص وسارق مهمل « نجرى» .. قال أبو بدور أنه شاهد هذا القيادى وهو يعدو وبيده كيس نقود يبدو أنه سرقه فيما يلاحقه المسروقين وساهم فى تخليصه من الموقف بعد أن توسل به وبدلا من حفظ الجميل لتخليصه حاول أن يمحوه من الوجود بعد أن صار قائدا لمجموعة مسلحة فى زمن المذبحة حتى يخفى ملفه الملوث ولا يفضحه أبو بدور .

وبعد هذه السهرة بيومين كان أبو بدور يتناول العشاء مع زوجته الحامل فى المطعم الوحيد الذى تحدى العنف بين منطقة حى البنوك ومدينة الصدر وهى مناطق مشتعلة كانت تحت سيطرة جيش المهدى وطلبت زوجته زيارة الامام الكاظم إلا أنه أصر على عودتها للمنزل حتى تنام الطفلة .. وفى منطقة القاهرة انفجرت السيارة حيث كان قد تم وضع عبوة ناسفة من النوع اللاصق « وهى نوع من العبوات التى يتم لصقها بمغناطيس أسفل السيارة بدلا من تفخيخها وقد أدت هذه التقنية الحديثة السهلة إلى مقتل المئات » .. وأدى الانفجار إلى تحطم السيارة وإصابة أبو بدور بإصابات بالغة جعلته أقرب إلى الموت من الحياة .. وأدى الانفجار إلى مقتل خمسة من المارة وإصابة عدد آخر بجروح بالغة .

يقول أبو بدور أنه رأى صورة أمه التى رحلت قبل عامين حينها بين غفوة الموت والحياة تطلب منه أن يبتعد عنها وألا يدركها ويلحق بها فى عالمها .. صور وخيالات وأصوات وضوضاء بين من يقول أنه مات أو مازال على قيد الحياة ويحتاج الإنقاذ .. حمله الطيبون رغم بدانته ووزنه الذى يتجاوز المائة كيلو جرام والشظايا التى تملأ

جسده الممزق .. بائعان شيعيان .. سائقان سنيان .. صاحب صيدلية دمر الانفجار واجهتها .. وعند أقرب طبيب وكان سنيا جرت معالجة أبو بدور وسط خليط من الخوف انتاب الطبيب الذى خشى أن يموت فى بيته بعد أن علم من هويته أنه شيعى والرغبة فى إنقاذ جريح شارف على الموت إلا أن الرغبة فى إنقاذ المصاب تغلبت على المخاوف .. تفحص الطبيب هاتفه المحمول ليتصل بـ « الروح» وهى زوجة أبو بدور «أختى أم محمد » « أختى أم على» وغير ذلك من الأسماء المسجلة على ذاكرة الهاتف التى تدلل على قرابة أو صداقة .. استيقظ ابو بدور ليجد كل ذويه وهم شيعة يصطفون حوله فى بيت الطبيب السنى .. قاموا بنقله إلى مستشفى بعد استقرار الحالة ليستكمل العلاج .

روى لى أبو بدور قصته وهو يشير إلى آثار الجروح والإصابات جراء الانفجار التى بقيت شاخصة على أجزاء جسده رغم مرور ثلاثة أعوام تقريبا على الحادث .. آثار التئام جروح فى الجبهة بعد عدة عمليات تجميل أصلحت الحروق .. ثلاثة أصابع كانت مقطوعة تماما جرى وصلها إلا أن آثار الجروح بقيت شاخصة لتد ل على حجم الإصابة .. آثار غائرة فى القدم والذراع .. بقايا كسر مضاعف فى القدم اليمنى مازال يعانى بقايا ألم عندما يسير عليها كثيرا .. رحلة علاج خارج العراق جزء منها فى أمريكا وبقايا من العمر جعلت الموت يخطىء أبو بدور هذه المرة ليبحث عن قاتل الأبرياء الذى حاول قتله .

يقول أبو بدور أن من زرع العبوة اللاصقة أسفل سيارته يقضى الآن ما تبقى من حياته كسيحا بعين واحدة بعد أن انفجرت عليه عبوة أخرى حاول زرعها أسفل سيارة برىء آخر لا لشيىء إلا لأنه تجاوز من وجهة نظره وكشف بعضا من جوانب حياته المظلمة التى سبقت حياة البذخ والنفوذ بعد أن أصبح قائدا لمجموعة مسلحة عاثت فى الأرض فسادا وورعت الموت فى زمن المذبحة .

يقول أبو بدور أن أكثر فائدة عادت عليه عندما خرج من الموت هو أنه غير أفكارًا كانت قد بدأت تستقر فى ذهنه عن زمن المذبحة أهمها أن الفتنة الطائفية لن تنتهى بالعراق وأن الانتماء الطائفى هو الغالب فى كل المواقف .. أما الآن فهو من دعاة الوحدة الوطنية وكما يقول « هذا الوطن ما نبيعه .. اخوان سنة وشيعة» .

١٠ - رتل الزيدان

فى يوليو عام ٢٠٠٧ كان ضياء وشقيقه أحمد فى طريق العودة من مقر إقامة

العائلة إلى حيث مقر العمل فى بغداد عبر رتل أمريكى منطقة الزيدان التى تبعد ٢٠ كم غرب بغداد الذى أدى إلى حصر كل السيارات المتوجهة إلى بغداد خلفه حتى يمر خرج مجموعة من المسلحين عددهم ١٢ شخصا ليقطعوا الطريق فورا بعد مرور الأمريكيين وأشاروا بتوقف كل العابرين الذين كانوا عبارة عن حافلة كبيرة لنقل الركاب /أوتوبيس/ وعدد من سيارات «جى إم سى» القادمة من الأردن وسوريا التى يطلق عليها العراقيون « جيمسى» محملة بالركاب وعدد من الحافلات الصغيرة لنقل الركاب وسيارات خاصة من بينها سيارة ضياء واحمد وهم من العرب السنة ينتمون إلى عشيرة المعمورى .. بينما كان معظم العابرين ينتمون إلى الطائفة الشيعية .

بدأت الأسئلة من جانب المسلحين الذين كان بينهم عناصر لا يزيد عمرها عن ١٣ عاما ولا يزيد عمر أكبرهم عن ٢٥ عاما بعد أن أمروا كل الركاب بالنزول من السيارات حتى جاء الدور على ضياء وأحمد .

ويروى ضياء أن احد المسلحين جلس فى السيارة بعد أن أخبره الشقيقان بأنهم من منطقة الخالدية وهى بلدة سنية خالصة تتبع محافظة الأنبار .. قال شلونها ؟ يعنى « كيف حالها ».. قالوا «يجاهدون جهادا قويا » حيث كانت إجاباتهم هى إجابة الخائف الباحث عن الأمان أخبرهم أن الإخوة المجاهدين الذين ينفذون تلك العملية هم من كتائب ثورة العشرين وطمأنهم بأنهم سوف يغيرون طريق العابرين من خلف سجن أبو غريب حتى يتفرغوا لضرب الأمريكيين .. كان هذا الكلام كذبا حيث عبر المسلحون إلى منطقة الزيدان التى تضم غابات كثيفة ومصارف لمياه الرى واقتادوا العابرين الذين بلغ عددهم حوالى ٢٠٠ شخص وتم تقسيمهم لغرض الاستجواب من جانب المسلحين .

دارت عمليات الاستجواب كما تجرى فى مثل تلك الأحوال بالسؤال عن الاسم ثم العشيرة ومن يثبت أنه شيعى يشار إليه بالدخول إلى المزارع الكثيفة بينما يتم إطلاق سراح السنى ليواصل طريقه إلى بغداد وذلك بعد عمليات تفتيش دقيقة لكل العابرين .

ويؤكد ضياء أن المسلحين لم يحاولوا الاستيلاء على أى نقود رغم أنه كان وشقيقه أحمد يحملون حوالى ٦٠ ألف دولار هى أسعار بضائع كانوا سوف يتسلمونها فى بغداد لصالح تجار كبار يعملون معهم .

كانت الطامة الكبرى عندما حصل أحد المسلحين أثناء عمليات التفتيش على «كارت شحن لتليفون محمول » بحوزة أحمد وظن أنه هوية أمريكية ومعناها

الذبح فورا وهو ما جعل الدماء تجف فى عروق الشقيقين بعد أن صدر القرار بذبحهما بسبب الهوية الأمريكية حيث كانت تلك الهوية الصادرة عن الأمريكيين أيا كانت نوعيتها بمثابة قرار الإعدام لحاملها أيا كانت طائفته أو وظيفته .

بعد قليل من التدقيق فى هوية أحمد « بطاقته الشخصية» التى تدل على صدورها من محافظة الأنبار وقليل من استجداء عطف من يقوم بعملية التفتيش تأخر قرار الإعدام بعض الشيء حتى جاء قائد المجموعة الذى كان يقوم بتقسيم العمل وبعد معرفة الحقيقة وقراءة المكتوب أكد للشاب ان هذا «كارت شحن موبايل» وليس هوية أمريكية وكان القرار هو الإفراج عن الشقيقين السنيين بعد أن كادا أن يفقدا حياتهما بسبب جهل أحد عناصر المجموعة الذى لا يعرف القراءة والكتابة ويمارس دور القاضى والحاكم والحامى للطريق .

ويقول ضياء أنه بعد الإفراج عن أبناء الطائفة السنية ممن لا يحملون هويات تدل على عملهم فى قوات الشرطة والجيش أو مع الأمريكيين أو فى دوائر الدولة تم اقتياد الباقين من السنة « الكفرة» التي أثبتت عمليات التفتيش وجود جهاز اتصال نوع «ثريا» وكميات من الدولارات أو الهويات الرسمية باعتبارهم يعملون مع الأمريكان وكان الضرب والشتائم لا تتوقف مع عمليات التحقيق .. كما تم اقتياد الشيعة إلى داخل البساتين ليلقوا مصيرهم المحتوم وهو الذبح رغم بكاء النساء وعويل الأطفال وتوسل العجائز بالمرض حتى يتركونهم ..إلا أن الرد كان حاسما من الحجى « قائد المجموعة» الذى قال للضحايا من الشيعة «حرقتم أهلنا وسنحرق أهلكم» .

ويشير ضياء إلى أن أهالى المنطقة كانوا يقومون بدور المتفرج المستريح على ما يجرى .. ربما لأنهم لا يستطيعون فعل أى شيء للضحايا الذين قادهم الحظ العاثر إلى المرور فى الطريق الخطأ وفى التوقيت الخطأ .. أو ربما كانوا يمتلكون القناعة الكافية بأن هؤلاء « المجاهدين» يؤدون دورهم المطلوب .

١١ - ما معنى «الله أكبر»

ذات مرة سألنى صحفى أجنبى يتحدث العربية عندما كنا نشاهد مقاطع مصورة لعمليات تعذيب وقتل وذبح يقوم بها ملثمون لضحايا لا ذنب لهم سوى أن حظهم العاثر ساقهم لأن يقعوا فى براثن إحدى نقاط التفتيش التابعة لفرق الموت أو تنظيم القاعدة ليلقوا مصيرهم المحتوم بعد وجبة دسمة من التعذيب بدت واضحة على أجسادهم ووجوهم .. سألنى الصحفى الأجنبى سؤالا أدهشنى وجعلنى عاجزا عن الرد قبل أن أستجمع طاقتى الذهنية فى محاولة للإجابة عليه

.. قال لي « عندما تصلون وتعبدون الله تقولون الله أكبر .. وعندما تذبحون البشر تقولون الله أكبر .. أستاذ محمود ما معنى الله أكبر عندكم ؟؟ !! » .. باغتني السؤال كما رسم علامات الدهشة المصحوبة بالخجل على أوجه من كان يشاركنا تلك الجلسة في أحد فنادق العاصمة بغداد .. قلت لصديقنا الصحفي الأجنبي أن من يقتل نفسا في ديننا الإسلامي هو بعيد كل البعد عن تعاليم الله والقران الذي يقول « لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » وأن ما يطلقونه من تكبيرات أثناء عمليات الذبح والقتل فلا مجال لها في مثل هذا الموقف لأن كلمة (الله أكبر) هي كلمة تبين شيئاً من عظمة ربنا الجليل الذي لا يحيط به وصف الواصفين

الله أكبر كلمة جاء الأمر بها في أول بعث النبي ﷺ وأول إرساله فإن الله جل وعلا قال لنبيه: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ»

وانطلقت أشرح له المعنى الحقيقي للكلمة المباركة فالله أكبر كلمة أمر الله بها أهل الإيمان في آية وصفها أهل العلم بأنها آية العز فقال جل وعلا: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ أي عظمه جل وعلا تعظيماً، وصفه بأنه سبحانه وبحمده أعظم من كل شيء. الله أكبر كلمة يدعى بها أهل الإسلام إلى أعظم أعمالهم وهي الصلاة وإنها تلك الكلمة التي يرددها المؤمنون في مآذنهم وتدوي بها بلدان المسلمين

الله أكبر كلمة يفتتح بها العبد لقاءه بربه يكررها في ركوعه وسجوده وقيامه وقعوده وفي سائر تنقلاته ليحضر في قلبه عظمة من هو واقف بين يديه فإذا قالها المؤمن وهو حاضر الفؤاد في صلاته امتلأ قلبه هيبة من الله تعالى وإجلالاً لمولاه وذلاً له سبحانه وبحمده فإذا امتلأ قلب العبد بذلك فلا تسأل عن صلاته إنه في مناجاة عظيمة في لقاء برب الأرض والسماء ينزل به حوائجه يدعوه كشف الضر ويسأله خير الدنيا والآخرة.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قول العبد: (الله أكبر) خير من الدنيا وما فيها. (الله أكبر) كلمة جامعة لمعاني العبودية دالة على أصول عبادة الله تعالى وفروعها، (الله أكبر أصدق كلام وأعذبه وأحلاه، (الله أكبر) أبلغ لفظ يدل على تعظيم الله تعالى وتمجيده وتقديسه، (الله أكبر) كلمة جمعت الخير فنيها الشهادة لله تعالى بأنه أكبر من كل شيء وأنه سبحانه أجل من كل شيء وأنه تعالى أعظم من كل شيء.

(الله أكبر) كلمة يعلو بها المؤمن على كل علي من الخلق ولذلك شرع الله تعالى تكبيره في كثير من المواطن من الأماكن والأزمان والأحوال والرجال التي يمتلئ فيها قلب الإنسان بتعظيم غير الله تعالى فجاء التكبير عند علو الأماكن العالية جاء التكبير عند رؤية أمر يفرح به ويسر فيكون التكبير خافضاً لعظم كل عظيم غير الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى أكبر من كل شيء جل وعلا وهو أعظم من كل شيء سبحانه وبحمده.

قاطعني متسائلا: « وما الفرح أو الأمر العظيم فى قتل مسلم لمسلم آخر لأن هذا سنى وهذا شيعى أو حتى قتل شخص من أى ديانة أخرى كما يقتلون الأمريكان مثلا ؟؟ وحتى إذا كانوا يعتبرون قتلهم للأمريكان نصرا فلماذا يقومون بتشويه جثثهم وتعليقها على الأشجار كما رأينا أكثر من مرة ؟!

قلت له أن هذا ليس موضع ذكر كلمة الله أكبر لأنه من تعظيم الله تعالى أن يعظم العبد حدود الله تعالى في نفسه فلا ينتهك حداً من حدود الله ولا يقع فيما حرم الله تعالى ولا يقصر في شيء مما أوجبه الله تعالى عليه بل تجده مسابقاً لطاعة الله تعالى عاملاً بما يرضيه سبحانه وتعالى مجتنباً كل ما نهى الله عنه ورسوله.

الله أكبر حاجز يمنع المؤمن من التورط في ألوان المعاصي والسيئات، الله أكبر حاجز يحول بين المرء وانتهاك الحرمات فإنه لا يضيع ما فرض الله تعالى عليه ولا ينتهك ما حرمه الله عليه إلا من خف في قلبه تعظيم الله تعالى وإنما يقل الخوف في قلب العبد من قلة تعظيم الله تعالى فإذا نما في قلب العبد تعظيم الله جل وعلا كان العبد مسابقاً إلى طاعة الله تعالى منتهياً عما نهى الله عنه ورسوله وإنني أذكر لكم شيئاً من سير من قص رسول الله ﷺ خبرهم حتى يتبين للمرء ما الذي يثمره التعظيم ما الذي يثمره إجلال الله وتقديره.

واستمرت حالة الجدل بين سؤال مستنكر لما يجرى من عمليات تعذيب يعقبها قتل برصاصة أسفل الرأس أو ذبح يثير الغثيان من الصحفى الأجنبى وجواب منى لا يملك تفسيرا لما يجرى من مسلحين ملثمين يرسمون بحماسة أسطورية، هذه الصورة المشوهة للإسلام ويشعلون جذوة حرب عبثية دينية أحيانا وطائفية أحيانا تحت عناوين مقدسة كالجهاد والدفاع عن الدين والوطن والطائفة والقومية وفقا لمداخلات وبيانات وخطب أطلقت باسم دعاة وعلماء دين وفقه وذهبت، من مواقع متباينة، إلى تحبيذ الحرب وتبرير دواعيها، وهو ما أدى إلى حفر مجرى عميق من التحزب الأعمى في نفوس الموالين.. بينما يقف خارج المشهد أناس على شاكلة

الصحفى الأجنبى ينظرون للأمر على أنه كوميديا سوداء لا يمكن تفسير الكثير من أحداثها ويختلط عليهم الأمر كيف ينظرون إلى المسلمين هل هم الرافضون لتلك الهمجية والذين يدركون جيدا حدود الخطأ والخطيئة وحدود الدفاع عن الوطن والدين أم هم هؤلاء الملثمون الذين لا يعرف أحد من أى جحيم خرجوا وبأى أحرف كتبوا عناوين مقدسة يرتكبون تحتها أكبر الكبائر .. ولأننى أدرك أن مثل هذا الجدل العقيم لا يمكن أن يستمر بسبب اختلاف الثقافات وهو ما يؤدى بالنتيجة إلى عدم وضوح الرؤية أنهيت الجدل المستمر بمقولة للقائد الأشهر نابليون بونابرت وهى أن « النافذة التي يخرج منها الهواء الفاسد هي نفس النافذة التي تسمح بدخول الهواء النقي ».

وانصرفت وأنا أسأل نفسى « لماذا يطلق من يذبح أخا له كلمة الله أكبر وهو يقتل نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق ؟؟ !! » .. هل من إجابة !!!!

١٢ - لحظة تنوير

حل عام ٢٠٠٨ بعد احتراق الأخضر واليابس وانهيار سلطة الدولة بشكل شبه كامل حتى قيل أن الحكومة العراقية لا تستطيع السيطرة سوى على بعض مكاتبها فى المنطقة الخضراء .. فى وقت انتفض العراقيون السنة على ما كانوا يسمونهم المجاهدين الذين شكلوا عماد تنظيم القاعدة فى العراق وتمكنوا من طرد تنظيم القاعدة فى معظم المناطق التى كانت مناطق نفوذ بعد دعم تلقاه رجال العشائر من القوات الأمريكية ودعم على استحياء من السلطات العراقية وهو ما جعل موقف الحكومة الشيعية يبدو محرجا وبات المالكى وحكومته يتلقون سيلا من الاتهامات بدعم الميليشيات سواء عمليا أو بالسكوت عن أنشطتها غير القانونية .

بدأت الغمة تنكشف بينما تنهار جسور المودة بين السلطة الشرعية وسلاطين القتل وبدأت العمليات العسكرية واسعة النطاق التى كان أشهرها ما أطلق عليه « صولة الفرسان» فى محافظة البصرة الجنوبية ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية والتى باتت مجموعة من الممالك تديرها فرق الموت والميليشيات خاصة جيش المهدى وكتائب ثأر الله .. فيما انفرد حزب الفضيلة الإسلامى بالإدارة السياسية والاقتصادية الرسمية من خلال المحافظ القوى محمد مصبح الوائلى الذى تعرض لأكثر من محاولة اغتيال بسبب هجومه على إيران وفضح تدخلاتها فى المحافظة الاستراتيجية ودعمها للميليشيات .

ويبدو أن الكيل كان قد طفح برئيس الوزراء المنتمى إلى حزب الدعوة نورى

المالكى من زيادة نفوذ الميليشيات وخاصة جيش المهدى الذى أصبح بتشكيلاته يمثل دولة موازية للدولة الشرعية ربما استنادا إلى دعم المالكى نفسه فى كثير من المواقف فى مختلف مناطق العراق كرد للجميل لمن جاءوا به إلى السلطة على جثة غريمه إبراهيم الجعفرى الذى تمكن المالكى من عزله إلى حين ليتوارى عن المشهد السياسى بعد أن أزاحه من قيادة حزب الدعوة كما تمت ازاحته من مقر الحكومة قبل أن يعاود الظهور مرة أخرى بعد استعادة مقومات القوة ويتحالف مع أصدقاء المالكى السابقين وأعدائه الحاليين وهما المجلس الأعلى الإسلامى والتيار الصدرى ضمن الائتلاف الوطنى الذى تدعمه إيران باعتباره ائتلافا يمثل الشيعة الذين تمرد عليهم نورى المالكى وحاربهم ليوقف نفوذهم الذى يدير دوامة العنف والقتل .

وهنا رأيت أن أنشر النص الكامل لكلمة رئيس الوزراء نوري المالكي خلال المؤتمر الصحفي الذي عقده يوم الأربعاء الموافق ٣٠-٤-٢٠٠٨ في بغداد التى توضح كيف كانت الصورة قبل أن يتمكن المالكى بدعم أمريكى من كسر شوكة جيش المهدى وغيره من حكام زمن المذبحة بعد معارك طاحنة كاد أن يفقد حياته فيها عندما حاصرته الميليشيات ابان تنفيذ حملة صولة الفرسان فى البصرة وقتلت أحد مستشاريه لولا الغطاء الجوى والبرى الأمريكى وهو ما سيأتى ذكره تفصيلا استناداً إلى رواية شهود عيان من عسكريين وصحفيين عاصروا الأحداث عن قرب وكانوا متواجدين فى ساحة المعركة الطاحنة.

«بسم الله الرحمن الرحيم»

في البداية شكرا على حضوركم ..ونذكر في هذه المناسبة بالمهمة الوطنية الشريفة التي تحملناها والتي هي وديعة الشعب العراقي الذين يتصدون للمسؤولية وهي مهمة بناء دولة القانون والمؤسسات وفق خيارات الشعب واليات الديمقراطية والدستور الذي نظم هذه العملية ولا شك بأن هذه العملية صعبة جداً وملامح الصعوبة فيها اننا علينا ان نهدم كل القيم والأخلاقيات التي ورثناها عن النظام الذي كان يقوده حزب البعث، وعلينا ان نبني قيما وأخلاقيات سياسية جديدة تؤمن بالأخر وتؤمن بالحوار وتؤمن بالدستور وتخضع وتسلم لإرادة الشعب عبر صناديق الانتخاب وهذه ليست مهمة سهلة انما تحتاج إلى ممارسة وترويض وقناعات ترسخ من أجل إعطاء الحق الذي يستند إلى البرهان والدليل، هذه المهمة لا يمكن أن تنسجم أبداً مع استمرار عمليات التصدي لدور الحكومة ومهماتها ونحن نريد أن نبني أو نهدم الأخلاقيات السابقة نواجه بمن يصر على إدامة

الأخلاقيات السابقة إدامة أخلاقيات حزب البعث، إدامة أخلاقيات التحكم وتهميش الأخر، أخلاقيات السيطرة والتهديد وفرض الإتاوات وإنشاء المحاكم، هذه كلها تتناقض مع العراق الجديد ونحن نبني على أن نواجه هذه الجهات التي تصر على الاستمرار بعقلية الجهل وعقلية السذاجة والضعف، العراق الجديد لا تبنيه إلا العقليات الحكيمة، العقليات التي تستطيع أن تخرج العراق من هذا النفق الذي دخل فيه، ولا يخرجه أولئك الذين يؤمنون بالقتل وتشكيل جيش إلى جنب جيش الدولة وإرادة إلى جانب إرادة الدولة وحكومة إلى جانب الحكومة، هذه كلها عمليات لا يمكن أن ننظر إليها إلا على أنها تمثل أخلاقيات النظام السابق ولا يمكن أن نتعامل معها ببساطة وسذاجة إلا أن نقول إنها محركة وان الذي يتحركون إن لم يكونوا هم من هذا النسيج المرفوض إنما هم مخترقون وموجهون بشكل مباشر من الذين يريدون العودة إلى سياسة الحزب الواحد، لذلك نجد هذه الظاهرة وهذه الممارسة موجودة من خلال جملة ممارسات بعضها إعلامي وبعضها ممارسات إجرامية على شكل عصابات منظمة وبعضها أفكار يراد لها أن تنتشر وهي أفكار فاسدة أفكار عفنة نواجهنا في كل يوم وفي كل مكان نحن نسعى من اجل تثبيت عدة سياقات اتفقنا عليها واقرها المجلس السياسي للأمن الوطني وهي من صلب الدستور العراقي والقانون هي من صلب الظاهرة الحضارية التي يعمل بها المواطن العراقي من اجل بناء عراقاً حضارياً متطوراً يقوم على أساس الدستور والقانون، نحن نؤمن أن السلاح يجب أن يكون بيد الدولة فقط هذا مطلب حضاري من يريد أن يبني دولة لا يجب أن يكون إلى جانب سلاح الدولة سلاح آخر .. أن الجيش هو جيش الدولة لا جيش الميليشيات مهما كانت مسمياتها وأنواعها .. هذا يعني أننا نريد أن نبني دولة بحكومة واحدة وجيش واحد ومن يصر بالمقابل على وجود جيش أو جماعة مسلحة هو ينازع الدولة في مسؤولياتها و هذا منطق مرفوض قطعاً وكنا قد قابلناه وسنقابله بمختلف الوسائل والأساليب الثقافية والإعلامية واستخدام القوة في كسر هذه الإرادة التي تريد أن تؤسس دولتين وجيشين، .. حين نقول أن العراق الجديد يعني أن لا تدخل في شؤون الوزارات والدوائر والحكومات نأتي ونجد أن الكثير من الوزارات التي كانت تدار من جهة اشتركت سابقاً في الحكومة هي وزارات محطمة ، وزارات تعيث بها العصابات وزارات إلى الآن لا نستطيع أن ننهض بها مجدداً بالدور الذي يتعلق بخدمة المواطن، هذا لا ينسجم مع نظرية بناء الدولة وبناء القانون، .. حينما تتحول مصالح البلد إلى مجالات لكسب المال تحت عنوان هيئة اقتصادية أو مؤسسة اقتصادية تجبي الأموال من خلال المقاولات لا يمكن أن نبني الدولة ويهدد المواطن ويهدد الموظف في مختلف دوائر

الدولة .. فكل يوم نسمع عن أحد المواطنين العاملين في أجهزة الدولة إما هو أو عائلته تعرض إلى قتل أو إعدام لا يمكن أن نبني الدولة ويأتي التجار ويقولون: أنقذونا من الإتاوات دوائر كاملة وكأنها دولة إلى جانب الدولة لا يمكن أن نبني دولة .. ويأتينا أصحاب محطات الوقود ويقولون: أنقذونا من الذين يفرضون علينا أسعار زائدة وضرائب إضافية هذا كله وضعناه شرط في التعامل مع أي جهة كانت تتدخل في شؤون الوزارات والمؤسسات ومصالح المواطنين .

لا أفهم من أين جاءوا بهذا الحق أن الذي يبيع بيته في الشعلة عليه أن يدفع مبلغ خمس ملايين إلى الهيئة الاقتصادية بأي شرع بأي قانون من يقبل بهذا عالم مرجع إنسان .. حينما قلنا عدم التدخل في شؤون الأجهزة الأمنية نعم لا يمكن أن تستقر الدولة إلا من خلال أخذ الأجهزة الأمنية بعدها ومداها في أن تلاحق المجرمين وأن تلاحق المطلوبين قضائياً وفق سياقات القانون نحن نتخذ موقفا صارماً مع الجهات التي تخالف وتعتدي على المواطن لكن حينما تقوم بدورها حينما تؤدي واجبها الوطني في حفظ الأمن وملاحقة العصابات وملاحقة الجريمة،.. حينما قلنا أنه لا يمكن أن يكون مقبولا في كل يوم أن نسمع عن عشرات الصواريخ تطلق في بغداد ومناطق أخرى ويومياً يسقطون المدنيين الأبرياء بهذه الصواريخ ثم لا يمكن أن نسمع بشيء نعتقد أنه من صلب أخلاقيات حزب البعث أن هذه المدينة محاصرة .. هذا كذب صريح لا شيء في المدينة محاصر يدخل ويخرج من يريد إلى المدينة المواد الغذائية والطبية والسيارات كله مفتوح نعم حصار على السلاح حصار على الصواريخ التي تسقط على رؤوس الناس يومياً تفتيش على السيارات التي تخرج أو تدخل إلى المدينة خشية أن تنقل السلاح ولكن سياسة النظام البائد حينما استخدم العراقيون دروعاً بشرية هي ما زالت قائمة في بعض المناطق وهذا الإعلام النازي البعثي الموجه بأن هذه المدينة محاصرة من أجل أن يستدروا العطف .

أقول للمواطنين: إياكم أن تقعوا في شراك الحيل والألاعيب البعثية ولكن لن نسمح لأحد أن يحاصر أحداً من أهلنا ومواطنينا بل بالعكس زدنا في الخدمات في مدينة الصدر الكثير من الأماكن لم توزع فيها البطاقة التموينية وتوزع في مدينة الصدر الكهرباء غير موجودة ولكنه موجود في مدينة الصدر٢٤ ساعة والمستشفيات فيها ما يزيد عن ما هو موجود في غير مستشفيات نعم إذا كان هناك نقص فهو في العراق عموماً وهذه مخلفات النظام السابق، ليس هناك حساب أبداً وإنما عتبي على البعض من الإعلاميين والسياسيين الذين يصدقون الدعاية نعم هناك البعض هو من يختلق هذه الدعاية انتفاعاً معها ويروج لها ولكن من يهمه الحقيقة

والإنسانية في نفس الوقت عليه أن يفرز بين الحقيقة والادعاء وهذه كذبة تنسجم مع كذبات النظام السابق وأخلاقياته باستخدام الناس دروعاً بشرية وفي استخدام معاناة الناس من اجل الخروج من الأزمة.

أنا أعلم أنهم يضربون محطة الكهرباء ويمنعون توزيع المواد الغذائية حتى يجوع الناس ويستصرخوننا يومياً أهالي مدينة الصدر والشعلة أنقذونا من هذه العصابات ولم نسمح لأحد أن يأسر إخواننا، نحن جئنا لخدمة الناس وبالذات هذه المدينة المحرومة التي عانت في النظام السابق لكن يبدو أن الذي ظلمه في السابق يظلمه اليوم ولكن هذا لا نسمح به أبداً وسيكون لنا موقف حازم وستشهد الأيام كيف سنقوم بتحرير الموطنين من هذه العصابات، كما أننا قلنا مراراً أن من أراد أن يكون في العملية السياسية لا يجب أن يكون له جيش وقوات مسلحة وسيحرم كل من له جيش من المشاركة في العملية السياسية ومن أراد أن يكون جزء من العملية السياسية عليه أن يشترك مع الدولة في تسليم المتهمين أو الأخبار عن المطلوبين والمجرمين ولكن من يتستر على المجرمين ويؤويهم ويدافع عنهم وإذا قلنا انتم قد اخترقتم قالوا نعم نعلم ان هناك مسيئين عندما نذهب لاعتقال المسيئين نواجه بحركة واسعة من الرفض والدعاية والإعلام والدفاع عن هؤلاء المسيئين إذن الجريمة واحدة سواء كان الذي اخترق أو الذي تستر على هذه الجريمة، قلنا لهم نقول للجميع ونحن لا نتحدث عن ميليشيا واحدة ميليشيا وقاعدة تشكيلات أخرى من أراد أن يكون وطنياً وان يكون جزء في العملية السياسية عليه أن يشترك مع الدولة في تسليم المطلوبين أو الأخبار عنهم حتى تتمكن الأجهزة الأمنية من تنظيف البلد من هذه العصابات المجرمة ولكن حينما يقفون بالدفاع عن هؤلاء المجرمين فهم شركاء وليس لهم الحق في أن يتحدثوا عن مظلوميتهم، وأنا أقول لا تصدقوا الناس بهذه الدعاية إذن هي واحدة من الأساليب التي عمل بها صدام حينما جوع العراقيين مع وجود الأموال المخصصة في مشروع النفط مقابل الغذاء ولكنه ما كان يشتري شيء يتعلق بحياة الناس إنما يتعلق بمشتريات مرفوضة حتى إذا رفضت الأمم المتحدة يقول انظروا لقد جوعوا الشعب العراقي، اليوم كذلك بنفس الأخلاقية وبنفس الطريقة يتصرفون .

نحن نرفض استخدام الناس كدروع بشرية المواطن العراقي اليوم حر وليس لأحد تتييد هذه الحرية بأي شكل من الأشكال أما أن نعود بأن يكون المواطن درع بشري من اجل أهداف شريرة ونوايا سيئة هذه نرفضها أبداً ونرفض استمرار عملية استهداف مقرات الدولة والمواطنين يومياً بالصواريخ وليس من حق أي أحداً أن يمنعنا أن نذهب خلف هؤلاء في أي مكان كانوا من اجل أن نحمي المواطنين وهيبة

الدولة كما نرفض أن تتخذ المساجد والحسينيات و أماكن العبادة والأماكن المقدسة لتخزين السلاح والتحصن كما عملو في حضرة الإمام علي عليه السلام وكما أرادوا أن يعملوها في حضرة الإمامين الحسين والعباس وأرادوا أن يعملوها في حضرة الإمامين الكاظمين هذه ممارسات سيئة وبعثية فيها كل معاني الأخلاقية التي ورثناها عن النظام السابق .

أبداً لا نسمح أن تتدنس العتبات المقدسة وهذا القرار الذي اتخذناه سنمضي فيه وهو اعتبار المناطق المقدسة منزوعة السلاح وقرار الاستمرار في عملية تفتيش الكاظمية مستمر حتى ننزع آخر مسدس موجود عند أي مواطن موجود في هذه المدينة كما أننا سنقف بقوة ضد هؤلاء الذين يحذرون المواطنين من الاستمرار بالدوام .. أنا لا أدري كيف ينتسب هؤلاء لأسماء نحترمها ونجلها ونقدسها أسماء المهدي أو الصدر وهم يؤخذون مجموعة من الموظفين المساكين يكسرون أيديهم وأرجلهم لأنهم لم يلتزموا بالمنع عن الدوام مع الأسف الشديد أقولها لكل من يدافع عن هؤلاء أنه سيكون شريك لهم في هذه الجرائم البشعة .

أمس علقوا أخ أحد العاملين في وزارة الداخلية وهو الأخ اللواء عبد الكريم خلف المتحدث الرسمي ومدير العمليات على أعمدة الكهرباء بعد أن قتلوه .. هؤلاء الذين يدافع عنهم أو يتستر عليهم، ما هو مستقبل العراق لو تمكن هؤلاء!! لكن ثقوا لن يتمكنوا أبداً وسوف يكون مصيرهم حتما إلى زوال لأنهم يتنفسون بنفس الأخلاقية التي ثرنا عليها زمناً طويلاً وقدمنا في طريق التخلص منها دماء غزيرة ومقدسة الشهيد الصدر الأول والشهداء من آل الحكيم وشهداء حزب الدعوة وشهداء في كردستان وشهداء الأهوار وشهداء المقابر الجماعية من أجل أن نتخلص من هذه الأخلاقية وإذا اقتضى علينا الأمر أن ندفع المزيد من هذه الدماء فسندفع.

لا نسمح لأحد أبداً أن يبقى موجوداً في العراق وهو يمثل بجثث الضحايا يقلعون عيون الضحية لا يكتفون بقتله يصبون عليه البنزين ويحرقوه هذه هي الأخلاقية التي يمكن أن نصفها أنها تنتمي لعنوان مقدس وهل يمكن أن نسكت عن من يمارس هذه الجرائم، نعم أنا أعلم أن أهالي مدينة الصدر ومناطق أخرى وأهالي البصرة كما خاطبناهم آنذاك أنكم ستعانون حتماً لأن هذه الفتنة واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة نعم الناس تأذوا ولكن نحن مضطرين .

الذي يفرحنا أن الناس يقولون: اقتلونا واقتلوهم ولكن خلصونا من هذه العصابات لكن إن شاء الله سوف لن تطول هذه المعاناة ولن نسمح بمزيد من معاناة المواطنين حتى ننقذ أنباءنا وأهلنا في هذه المناطق من سيطرة العصابات لذلك

حينما نقول الهدف النهائي الذي لم نتراجع عنه هو نزع سلاح الميليشيات حل جيش المهدي حل الجيش الإسلامي حل جيش عمر إنهاء القاعدة هذه بالمحصلة النهائية هي البوابة الحقيقة للأمن والاستقرار لبناء العملية لسياسية لذلك قلنا بكل وضوح شروطنا على من يشترك بالعملية السياسية هو نزع السلاح وحل الميليشيات وعدم التدخل بشؤون الدولة ومؤسساتها وعدمٌ إنشاء المحاكم وعدم التدخل بعمل الأجهزة الأمنية وتسليم المطلوبين والتعاون مع السلطة من اجل كشفهم وملاحقتهم هذه ليست شروط تعجيزية بل هذه من أولويات وأبجديات العملية السياسية من أبجديات عمليات الاستقرار التي نتحدث عنها من أبجديات الدولة التي ينبغي أن تقام على أساس القانون والدستور.

ألفت نظر السادة الإعلاميين الذين ينشدون الحقيقة والإعلام المهمة مقدسة عادةً تعكس الحقيقة إلى الناس أن لا تصدقوا ما يقال وابحثوا عن الحقيقة وستجدون الأهداف والنواي الشريرة التي تقف خلف الدعايات التي يتلقفها بعض الإعلام ويعكسها دون أن يدري انه يعكس مؤامرات خبيثة وأيضاً في نفس الوقت أني أقول لكل الذين يحرضون على شاشات التلفزيون في كل يوم والذين يتحدون بلغة التحدي للدولة أقول لهم اصبروا فأن الأمر سيأتي والقضاء موجود ولابد أنكم ستمثلون أمام القضاء أنكم انتم الذين تضعون الزيت على النار وتأججون الفتنة بين المواطنين وبين المواطن والحكومة هؤلاء سواء كانوا أعضاء في مجلس النواب أو في التكتلات وأحزاب سياسية أو في الحكومة الذين لا يتورعون عن إثارة الفتنة والحديث السيء يومياً عبر وسائل الإعلام يتحملون المسؤولية والمسؤولية سيتحملونها وفق القانون لا نقول غير القانون وغير السياقات القانونية ولكن ليدرك كل من يتحدث عبر شاشات التلفزيون والإعلام أن حديثه السيء وان حديثة المحرض على الفتنة يتحول إلى رصاصات يتحول إلى انهار من الدم ويتحول إلى معاناة ويتحول إلى عراق مجهول لأن العنف لا يولد إلا العنف إذا أردنا السلام ينبغي علينا أن نعمل من اجله والعمل من أجل السلام والمحبة من اجل التعايش والاستقرار لا بد ان يقوم على أساس القانون والدستور وإعطاء الحق والالتزام بالضوابط الوطنية التي تشيد عادةً عليها الدول لقد سبقتنا دول في مثل هذه الفتن لكنهم تجاوزوها بالإرادة الصلبة والاحتكام إلى منطق العقل والدستور و من يخرج على إرادة العقل والدستور ينبغي أن يقاوم بكل قوة .

وشكراً جزيلاً لكم .

بغداد ٣٠-٤-٢٠٠٨

كان هذا الخطاب الرسمى لرئيس الوزراء نورى المالكى بعد أن ضاقت به الدنيا من سلوكيات الدولة الموازية وقادتها الذين تفوق سلطتهم نفوذ وقوة السلطة الرسمية للدولة[1] ولهذا كان العام ٢٠٠٨ بمثابة عام التحولات وعام انكشاف الغمة حيث رسم العام ٢٠٠٨ علامات بارزة فى المشهد العراقى تسارعت وتيرتها قبل أن يحمل نهاياته ويرحل جعلت من هذا العام بامتياز عاما للتحولات والانشقاقات وان كان بعض المراقبين يرون أنها نتائج ونهايات وربما حصاد لبدايات تطورت بشكل متتابع وسريع لترسم واقعا عراقيا جديدا مليئا بالمتغيرات والمتناقضات فى عراق ما بعد الاحتلال .

ولعل المراقب للساحة العراقية بقدر ما يلاحظ التغيرات المتسارعة فانه لا يستطيع أن يعطى وصفا دقيقا لنتائج تلك التغيرات أو يتوقع أثرها على الشعب العراقى أو جيرانه فكما يمكن أن ترسم تلك التغيرات ملامحًا لواقع يسوده التفاؤل فى مستقبل زاهر فإنها أيضا يمكنها أن ترسم ملامحًا لواقع تسوده النزاعات والتوترات عراقيا وعربيا وربما إقليميا .

فقد شهدت الساحة العراقية خلال العام ٢٠٠٨ عدة تحولات ايجابية قياسا بالسنوات الصعبة التي مرت بالشعب العراقي منذ دخول القوات الأمريكية ساحة الفردوس الشهيرة وسط بغداد فى التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣ وهو ما جدد الأمل في نفوس العراقيين بان يروا الضوء في نهاية النفق الذي كانوا ينتظرونه منذ تسعينيات القرن الماضي عندما فرض مجلس الأمن الدولي العقوبات الاقتصادية، وجاء الاحتلال ليزيد من العتمة التي غلفت المشهد الدرامى لبلادهم مع اقتراب نهاية عصر صدام حسين.

ولعل أهم هذه الأحداث هو تحسن الوضع الأمني في عموم محافظات العراق بعد تشكيل قوات الصحوة التي تمكنت بالتعاون مع سكان المناطق الساخنة من طرد عناصر تنظيم القاعدة وقتل واعتقال المئات منهم بالإضافة إلى تقليص نفوذ الميليشيات الشيعية وكسر شوكتها بعد افتضاح أمرها وتلقيها الدعم المادى واللوجيستى من إيران الأمر الذي انعكس بصورة ايجابية على جميع الأصعدة في العراق.

إلا أن ملامح الأمل التى غلفت المشهد العراقى على وقع التحسن الأمنى النسبى الذى أدى إلى انخفاض معدلات العنف إلى أكثر من ٨٠ فى المائة ما لبث

(1) كان المالكي يشير في هذا الخطاب إلى التيار الصدري وهو ما أدى إلى عداء شديد بين الجانبين استمر حتى ظهور نتائج الانتخابات النيابية الأخيرة إلا أن العدوين اللدودين أصبحا فجأة حليفين لصيقين .

أن شابتها مخاوف من عودة الأمور إلى المربع الأول مع حدوث عدة تفجيرات أدت إلى تحذيرات من قادة عسكريين ومسئولين أمنيين عراقيين وأمريكيين من احتمالات ضياع المكاسب الأمنية التى تحققت باعتبار أن الوضع ما زال هشا وهو ما عزز المخاوف لدى العراقيين من انهيار آمالهم فى الاستقرار والأمن .

وقد تطور الاستقرار الأمنى فيما بعد إلى إلقاء العديد من المسلحين لسلاحهم ودخولهم في العملية السياسية وتشكيلهم لكيانات سياسية خاضت انتخابات مجالس المحافظات التى رسمت ملامح جديدة للخارطة السياسية بالعراق مع انتخاب حكام جدد للإدارة المحلية فى المحافظات التى تتمتع بصلاحيات واسعة بعيدا عن سلطة الإدارة المركزية .

ولعل التحول فى المشهد الأمنى إلى جهة الاستقرار النسبى خلال العام ٢٠٠٨ بعد سلسلة من العمليات العسكرية الرسمية والشعبية نفذتها قوات عراقية وأمريكية مدعومة برجال العشائر فى مناطق النفوذ القديمة للقاعدة والميلشيات هو ما جعل المراقبين يرون أن هذا التحول ما هو إلا نهاية متوقعة لبدايات قاسية كرس فيها المسلحون بمختلف فصائلهم ونزعاتهم وانتماءاتهم كافة الجهود لخلق حالة من الفوضى وانعدام الأمان بالإضافة إلى عمليات التهجير القسرى والتطهير العرقى للمناطق على أساس طائفى .

١٣ - صولة الفرسان

فى تصريح منشور للواء عبد الجليل خلف قائد شرطة البصرة فى بداية العام ٢٠٠٨ قال إنه اكتشف بعد تسلم منصبه وجود ٢٥٠ سيارة شرطة و٥٠٠٠ مسدس جرت سرقتها ، واستخدمت من قبل فرق الموت التي تنظمها الميليشيات الشيعية.

وقال «الذين جاءوا إلى سلك الشرطة فقراء وصاروا الآن أغنياء جدا .. طردت المئات منهم لكن ما زال هناك بيننا رجال ميليشيات فنحن ندفعهم من الباب ليعودوا من الشباك».

قوات الأمن العراقية في البصرة كانت تعتبر مثالا واضحا على التوتر القائم بين الأحزاب السياسية، وما يسمى بوحدة شرطة الجرائم الكبيرة في البصرة هي المثال الأسوأ حيث جرى ضبط فرقة قتل مرتبطة بالميليشيات الشيعية، وسبق أن هاجم البريطانيون بدباباتهم في ديسمبر عام ٢٠٠٦ مقر هذه الوحدة وهدموه تماما لكن مذكرات الاعتقال العراقية التي صدرت ضد أفراد الوحدة لم يتم تنفيذها كغيرها من مذكرات التوقيف التى صدرت عن وزارة الداخلية عدد كبير من

قادة المجموعات المسلحة بتهمة تنظيم أعمال خطف وتعذيب واغتيالات

كانت تلك الصورة المضطربة أمنيا وسياسيا دافعا لنورى المالكى الذى أراد أن يثبت أنه رجل العراق القوى الذى يضرب بيد من حديد ليس ضد السنة فقط وإنما ضد الشيعة أيضا وعلى رأسهم من جاءوا به إلى كرسى الحكم حتى يهيىء الساحة العراقية لإنجاز الاتفاقية الأمنية مع الولايات المتحدة ويشكل قوات عراقية جديرة بتسلم مهام الملف الأمنى المعقد ولهذا جاءت حملة صولة الفرسان التى أرادها المالكى نموذجا لفرض سلطة الدولة وإنهاء سلطة الميليشيات والأحزاب التى خربت البلاد والعباد .

لم يتوقع الرجل الذى يجلس على مقعد الحكم فى المنطقة الخضراء أن تلك الحملة ستكون بمثابة الصدام الأعنف لرسم طريق اللاعودة فى علاقاته مع الصدر .. والحقيقة أن أحداً لم يتصور مستوى قدرة ميليشيات الصدر وغيرها على الصمود وتهديد سلطة الدولة التى انسحب مقاتلوها من ساحة المعركة ورفض معظمهم القتال ضد الميليشيات رغم التعزيزات الكبيرة التى جاءت من بغداد وعلى رأسها قوة كبرى قادها وزير الداخلية جواد البولانى بنفسه إلا أن مفاجأة غير سارة كانت بانتظاره حيث هاجم المسلحون موكبه ولولا سيارته المصفحة المضادة للرصاص لكان فى خبر كان مثل كثير من أعضاء القوة الحكومية القادمة من بغداد الذين انقلب عليهم عناصر القوة المحلية وقاتلوا فى صفوف الميليشيات لأن ولاءهم الأول لهم والثانى للعشيرة ثم يأتى الولاء للدولة فى النهاية وربما لا يأتى أبدا .

عندما وصل موكب رئيس الوزراء نورى المالكى إلى مبنى المحافظة تمت محاصرة المكان ومهاجمته وهو ما أدى إلى مصرع أحد مستشارى رئيس الوزراء وهو ما حدا بالمالكى إلى طلب النجدة من القوات الأمريكية محذرا إياها من انهيار الحكم والدولة العراقية وسقوط البصرة ثم باقى المحافظات فى أيدى الميليشيات بمختلف انتماءاتها وولاءاتها خاصة تلك الموالية للجارة الشرقية إيران .

ويروى لى أحد كبار ضباط العمليات الذين شاركوا فى صولة الفرسان وهو يحمل رتبة عميد ركن أن الليلة الأولى لمهمتهم كانت عصيبة حيث تم قصف الموقع الذى يتخذونه كمركز للعمليات ب ١٩٢ قذيفة هاون .. ثم توالت الهجمات بعد أن فوجئوا بتلك القوة المميتة والأسلحة المتطورة والدعم غير المحدود الذى تتمتع به قوات الميليشيات خاصة جيش المهدى .

ويؤكد لى العميد الركن أنه ومن معه نطقوا الشهادتين واستعدوا للموت بعد تواتر

الأنباء عن مهاجمة موكب وزير الداخلية والمكان الذى يتحصن فيه رئيس الوزراء واستعدوا للقتال كأى جندى محاصر فى ساحة معركة لن يخرج منها حيا .. كان هدفهم إلا يكونوا صيدا سهلا لتلك الزمر المجرمة التى لا تعرف حتى القراءة والكتابة وإنما تستند إلى قوة وحشية ونفوذ لا محدود فرضه حكام زمن المذبحة الذين كانوا قد شيدوا دولة الخوف والقهر التى فاقت سلطتها سلطة الدولة الشرعية التى تعمل فى كنف القوات الأمريكية والبريطانية التى هرعت لنجدة حليفها المالكى .

كان من المفترض أن يؤكد الهجوم العسكري العراقي في البصرة قوة وسلطة الحكومة المركزية في بغداد، لكنه كشف عن استمرار قوة ونفوذ مقتدى الصدر.

فقد تمكنت ميليشياته «جيش المهدي» من الصمود عدة أيام في قتالها العنيف ضد جنود الحكومة المدعومين بقوة جوية أمريكية وبريطانية، غير أن الأمر الأكثر أهمية من الطريقة، التي استخدمتها تلك الميليشيات في قتالها، هي الطريقة التي توقفت بها عن القتال.

فكما بدأت تلك القوات القتال بأمر من مقتدى الصدر توقفت بعد أن أصدر الصدر أمرا لأفراد جيش المهدي للامتناع عن الظهور في الشوارع بأسلحتهم، والتوقف عن مهاجمة المنشآت الحكومية.

وما أن مر وقت قصير حتى توقف القتال على نحو تام تقريبا.

ورأى كثيرون من المراقبين السياسيين في هذا ردا منذرا بالسوء على السؤال الذي طالما أثاره المراقبون العسكريون الأمريكيون وهو هل الصدر لا يزال قائدا لحركة موحدة وقوة عسكرية؟

الجواب على هذا علي ما يبدو: نعم.

فبينما كان العديد من الضباط والجنود الأمريكيين يعتقدون أن جيش المهدي تحول إلى مجموعات صغيرة مشرذمة تعمل كل واحدة منها على هواها ومنها عصابات إجرامية، يبين القتال الأخير في البصرة أن تلك الميليشيات تُصغي عندما يتحدث الصدر.

هذه السلطة الواضحة تتباين تماما بالطبع مع ضعف رئيس الحكومة العراقية نوري المالكي الذي كان سافر إلى البصرة بنفسه مع وزراء أمنه للإشراف على العملية شخصيا.

لكن بعد أيام قليلة من القتال المكثف مد المالكي الموعد الذي كان قد حدده للميليشيات للاستسلام وتسليم أسلحتها مقابل مبلغ من المال، لكن على الرغم من

هذا، احتفظت هذه الميليشيات عند إعلان قرار وقف إطلاق النار بتلك الأسلحة ولم تسلمها.

كرست تلك العمليات حقيقة أن الصدر في موقف ممتاز في حلبة السياسة وخارجها، فهو جزء من المؤسسة الحاكمة ومناوئ لها في وقت واحد.

فعلى الرغم من القتال، لم يسحب أبدا حلفاءه من الحكومة، أو يسحب تأييده للمالكي في البرلمان، وهو أمر كان بالإمكان عمله كما لم يطالب كل أنصاره بالانسحاب من البرلمان أو العمل خارج إطار النظام السياسي الراهن إلا أنه أمر في صيف عام ٢٠٠٨ وزراءه، بالخروج من حكومة المالكي بعد رفض رئيسها تحديد جدول زمني لانسحاب الجنود الأمريكيين من العراق، وبدا بذلك فى نظر الرأي العام العراقي كرجل يحافظ على مبدأ رفض الاحتلال.

غير أن مقاطعته للحكومة لم تخفف من تأثيره عليها، فكل الوزارات التي ترأسها حزبه مرة لا تزال مليئة باتباعه الذين لا يزالون يعملون لتوفير وظائف للموالين لهم ويديرون ماكينة الصدر السياسية.

وهكذا لم يعد الصدر قوة عسكرية فحسب بل صار أيضا زعيما سياسيا وهو ما جعله مؤهلا لأن يكون زعيما وطنيا حقيقيا يخشاه الأمريكيون والمالكي فقد تزامنت أوامره بوقف القتال عمليا مع تحقيق أقصى قدر من الكسب السياسي واحتفاظه بقدراته العسكرية التى كان يمكن أن يتم تدميرها تحت وطأة الضربات الأمريكية.

وهو الدرس الذى استفاد منه في تجربة عام ٢٠٠٤ حيث تكبدت ميليشيات الصدر خسائر جسيمة بشريا وماديا في قتالها المرير مع الجنود الأمريكيين ومشاة البحرية الأمريكية إلا أن الصدر ما لبث أن أصبح بعد ذلك رمزا للمقاومة الشيعية للاحتلال العسكري الأمريكي، وتمكن من خلال سمعته هذه من دخول عالم السياسة.

والآن، في الوقت الذي بدأ فيه نجمة يخبو ويصبح على الهامش في الفترة الأخيرة، جاء هجوم الحكومة العراقية الأخير ليُلمع صورته كزعيم مناضل يتحدى الولايات المتحدة والحكومة العراقية، التي ترفض طرد الأمريكيين من بلاده، وبذا، بات الصدر أقوى بعد صولة الفرسان وحتى بعد إعلانه حل جيش المهدى ودخوله المعترك السياسى رغم أنه يقيم فى إيران التى أظهرت الوقائع على الأرض لكافة العراقيين أنها تعمل ضدهم .. رغم هذه الظروف إلا أن الصدر تمكن بعد عامين من صولة الفرسان أن يحقق نتائج ايجابية فى الانتخابات النيابية التى جرت فى السابع من مارس ٢٠١٠ واستطاع تيار الأحرار الذى يمثل الواجهة

السياسية للتيار الصدرى من الحصول على غالبية مقاعد الائتلاف الشيعى « الائتلاف الوطنى العراقى » وظل محتفظا بعدائه الشديد للمالكى الذى يسعى لتجديد ولايته كرئيس للوزراء لفترة ثانية .

استطاع الصدر أن يرد الضربة ضربات لنورى المالكى الذى دمر جزءاً كبيراً من مقاعده وأفقد رجاله نفوذهم الطاغى فى مختلف مناطق العراق وشرد قادته فقتل من قتل وهرب من هرب إلى خارج العراق .. وبعد أن ناور الصدر ليمنع المالكى من الاستمرار فى سدة الحكم كرئيس لوزراء العراق .. بينما تتحقق مطالبه التى كرست حضوره كقائد وطنى رافض للاحتلال بمغادرة الجزء الأكبر من قوات الاحتلال الأمريكى للعراق فى نهاية أغسطس من العام ٢٠١٠ وفق الجدول الزمنى الذى أقرته الاتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن ، عاد الصدر حليفًا للمالكي بضغوط إيرانية بعد أن فرض شروطًا سوف تجعله لاعبًا رئيسيًا على الساحة العراقية خلال السنوات الأربع القادمة .

١٤ - تحولات

واكب عملية صولة الفرسان عمليات أخرى حملت نفس الاسم فى مدينة الصدر معقل جيش المهدى الذى آثر قائده الانسحاب من المشهد الأمنى مؤقتا لتهدأ الساحة العراقية لبعض الوقت ويعلن رئيس الوزراء نورى المالكى انتصاره العسكرى المنقوص ونجاح خطته التى أطلقها لفرض القانون .

أدى هذا التحول على الصعيد الأمنى إلى تحول آخر على الصعيد الاجتماعى حيث شهد العام ٢٠٠٨ بدايات العودة لمئات الآلاف من العراقين الذين نزحوا من مناطق سكناهم الأصلية إلى داخل وخارج العراق واستقبل مطار بغداد عشرات الرحلات من العائدين خاصة من الأردن وسوريا ومصر إلى بلدهم بعد استقرار الأوضاع الأمنية فى مناطقهم وهو تحول بالغ الدلالة يؤشر لمنهج جديد بعيدا عن الطائفية التى أدت إلى نزوح أكثر من ٤ ملايين عراقى إلى الخارج ناهيك عن النازحين إلى الداخل إلى مناطق أكثر أمنا .

أما التحول الآخر المهم الذي شهده العراق هو الانفتاح على محيطه العربي وإذابة الجليد الذي اعترى علاقاته مع أشقائه العرب، فقد زار بغداد هذا العام العاهل الأردني الملك عبدالله ، وهي أول زيارة لزعيم عربي للعراق بعد الاحتلال الأمريكي، أعقبتها زيارات لمسؤولين عرب رفيعي المستوى من دول عربية لها تأثيرها ووزنها الإقليمي والدولي وعلى رأسها مصر وأدت هذه الزيارات، والزيارات التي قام

بها كبار القادة العراقيين للدول العربية إلى إعلان أربع دول عربية إعادة فتح سفاراتها في العراق وهو ما ولد شعورا لدى العراقيين بان بلدهم الذي مزقته الحروب والتدخلات الأجنبية في شؤونه باق في محيطه العربي رغم المحاولات الكبيرة التي بذلت لإبعاده عنه.

ولا يقتصر هذا التحول الكبير على أهميته السياسية فقط وإنما يتجاوزها إلى الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية فلا يخفى على أحد ما يتمتع به العراق من امكانيات اقتصادية هائلة فى كافة المجالات وعلى رأسها الاستثمارات فى مجالات النفط علاوة على ما يحتاجه العراق من آلاف المشروعات حتى يعيد بناء ما دمرته سنوات الحصار والحروب والإنهيار الكبير فى بنيته الأساسية التى كرستها سنوات ما بعد الاحتلال الأمريكى .

رغم هذه التحولات الإيجابية إلا أن هاجس المخاوف ظل مستمرا لان الوضع في العراق لم يصبح طبيعيا فلا تزال هناك أعمال عنف وقتل وتهديد ، رغم أن الحكومة العراقية حاولت استغلال هذه التطورات الإيجابية وتصحيح الأخطاء التي وقعت بها العملية السياسية للانطلاق نحو مستقبل أفضل وبناء علاقات متوازنة على أساس المصالح المتبادلة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية مع دول الجوار والمنطقة بأسرها.

وعلى صعيد التحولات الكبرى وهو ما جرى من إعادة تشكيل المسرح السياسى العراقى وصعود قوى سياسية أهمها القوى العلمانية ومجالس الصحوات على حساباتأخرى أهمها قوى الإسلام السياسى والأحزاب الدينية التى اعتبرها العراقيون تكريسا لمبدأ الطائفية والشعارات الزائفة التى قادت البلاد إلى حافة الحرب الأهلية ولم تقدم أيا من وعودها فى بناء العراق الجديد .

حمل العام ٢٠٠٨ مفاجآت كبرى فى إطار تفكيك وتشرذم الكتل النيابية التي بنيت على أساس طائفي مع زيادة الوعي الوطني بين أبناء الشعب العراقي الذي بدأ يلتف حول الأحزاب والتيارات العلمانية ذات النفس الوطني والبرنامج الواضح المحدد، بعد أن يأس من الأحزاب الدينية، وجربها طوال الخمس سنوات الماضية ولم يحصد منها سوى القتل والدمار وقلة الخدمات والتهجير .

بدأت الانشقاقات والتحولات فى كتلة الائتلاف العراقي الموحد الشيعية الحاكمة التى أصبح لها ٨٣ مقعدا في البرلمان قياسا بالعام الماضي عندما كان عدد نوابها ١٢٨ نائبا حيث انشق حزب الفضيلة الإسلامى الذى يتمتع بنفوذ واسع فى محافظة البصرة الاستراتيجية ثم تبعه التيار الصدرى الذى يمثله ٣٠ نائبا

فقط إلا أنه يتمتع بنفوذ واسع على المستوى الشعبى .

أفرزت عدة مواقف انفراط عقد الائتلاف الشيعى بشكل كامل خاصة فى ظل الخلافات المتصاعدة بين المجلس الأعلى ورئيس الوزراء نورى المالكى رجل العراق القوى الذى يتزعم حزب الدعوة الذى تعرض فى الأساس إلى انشقاقات أنتجت حزب الدعوة / تنظيم العراق/ وتيار الإصلاح الذى يتزعمه رئيس الحزب السابق الدكتور إبراهيم الجعفرى بالإضافة إلى الخلاف بين المالكى والصدر .

وجاء انفراط عقد الائتلاف الشيعى الحاكم متواكبًا مع تشكيل التحالف الرباعى الذى ضم الحزبين الكرديين الكبيرين وهما الاتحاد الوطنى الكردستاني الذى يتزعمه الرئيس جلال طالبانى والحزب الديمقراطى الكردستانى الذى يتزعمه رئيس اقليم كردستان مسعود بارزانى إلى جانب المجلس الأعلى وحزب الدعوة مع محاولات لضم الحزب الإسلامى الذى كان يتزعمه نائب الرئيس الدكتور طارق الهاشمى ، قبل أن ينشق فيه ويتزعم حركة تحديد ويخوض بها الانتخابات النيابية الأخيرة .

أما جبهة التوافق العراقية التى كانت تمثل أكبر تكتل للعرب السنة مشارك فى العملية السياسية ويمثلها ٤٤ نائبا فقد انفرط عقدها تباعا عندما خرج منها ستة نواب بشكل فردى ثم انسحب منها مجلس الحوار الوطني برئاسة الشيخ خلف العليان وكتلة المستقلين بسبب «فشلها» في أداء رسالتها التي تشكلت من أجلها و«التفرد» باتخاذ القرارات .

وجاء هذا الانسحاب على خلفية إجبار الدكتور محمود المشهدانى وهو أحد قيادات مجلس الحوار الوطنى على الاستقالة من منصبه كرئيس لمجلس النواب وهو ما شكل بداية لتغييرات جذرية في الخارطة السياسية خصوصاً بعد انتخابات مجالس المحافظات التى جرت فى يناير من عام ٢٠٠٩ .

في حين أن كتلة الحوار الوطني التي يرأسها الدكتور صالح المطلك وكان لها ١١ نائبا أصبحت تضم نحو ٢٠ نائبا إضافة إلى تشكيل كتل سياسية داخل البرلمان تضم مستقلين وترفع شعارات وأهدافًا وطنية قد تتوسع هذه الكتل لتحتل مكان الكتل الكبيرة في الانتخابات المقبلة، التي جرت في مارس ٢٠١٠، حيث انضم المطلك إلى تكتل العراقيين الذي يضم علاوي زعيم حركة الوفاق الوطني وحركة تجديد بزعامة الهاشمي .

ولعل المثير فى هذا الأمر هو أن مجرد تحديد موعد الانتخابات المحلية كان كفيلا ببروز تحالفات سياسية جديدة نتيجة انقسامات داخل تحالفات قائمة بالفعل وإن حاول أصحابها التقليل من شأنها باعتبارها انقسامات معللين ذلك

بأن تلك التحالفات وجدت فقط لخوض الانتخابات وإنما الأبقى والأرسخ هو التحالفات القائمة بالفعل والتى سوف تندمج مرة أخرى بمجرد الحصول على حصة وافية فى مجالس المحافظات .

ولعل أهم تلك التحالفات التى برزت على ساحة الانتخابات هى تحالف « دولة القانون» الذى أعلنه رئيس الوزراء نورى المالكى والذى ضم حزب الدعوة مع سبع كيانات أخرى بعيدا عن المجلس الأعلى والحلفاء الأصليين فى الائتلاف الشيعى الحاكم وهو التحالف الذى حقق نتائج مبهرة فى انتخابات مجالس المحافظات ثم فى الانتخابات النيابية التى جرت فى مارس عام ٢٠١٠ .. بالإضافة إلى التحالفات التى شكلتها مجالس الصحوة لخوض الانتخابات التى فشلت فى تحقيق نتائج مرضية سياسيا رغم انتصارتها العسكرية ضد تنظيم القاعدة والميليشيات والتى أدت إلى دعم التوجه الحكومى والأمريكى لتهدئة الأوضاع نسبيا بالعراق خلال الفترة التى تلت أعوام العنف الطائفى .

واذا كانت تلك التحولات التى كرستها الانشقاقات والتحالفات الجديدة قد حملت بعضا من الأمل فى اصلاح الوضع السياسى الذى طالما حذر القادة الأمنيون من أنه ما لم يتم تطويره فانه سيعيد الوضع الأمنى إلى المربع الأول إلا أن تلك التحولات حملت ايضا هاجسا ومخاوف من أن صراع القوى سوف يجر العراق إلى مأزق تقاسم السلطة وفق قانون الصراع على المكاسب والتحزب وهو ما بدا بوضوح بعد إعلان نتائج الانتخابات النيابية التى أفرزت فوزا كبيرا لقائمة « العراقية» العلمانية التى يتزعمها إياد علاوى وتضم مكونات سنية .. فيما حل ائتلاف دولة القانون الذى يتزعمه رئيس الوزراء نورى المالكى ثانيا بفارق مقعدين فقط وتراجع الائتلاف الشيعى إلى المركز الثالث بفارق حوالى ٢٠ مقعدا إلا أن ظروف اللعبة السياسية جعلت من ذلك الائتلاف بمثابة رمانة الميزان التى تتحكم بولادة الحكومة العراقية الجديدة وهو ما أدى إلى تأخر تشكيلها عدة أشهر بعد انتهاء العملية الانتخابية .. حيث سارت الأمور بين شد وجذب وممارسات سياسية قوامها سياسة « حافة الهاوية» وممارسة لعبة عض الأصابع للوصول إلى أقصى مكاسب ممكنة .

ومن الأحداث المهمة التي حصلت قبل نهاية عام ٢٠٠٨ والتى حملت أبعادا إقليمية ودولية هو توقيع العراق للاتفاقية الأمنية مع الولايات المتحدة، التي ستنهي بشكل أو بآخر التواجد الأمريكي فيه ، حيث انسحبت القوات القتالية الأمريكية من المدن والقصبات العراقية في نهاية يونيو من عام ٢٠٠٩ بينما تنسحب القوات الأمريكية من العراق ككل نهاية العام ٢٠١١ بالإضافة إلى توقيع اتفاقيات إطارية

للتعاون فى المجالات الاقتصادية والثقافية بين البلدين .

١٥ - الرحلة الخطرة

حمل العام ٢٠٠٨ تحولا كبيرا من الإدارة الأمريكية باتجاه منظمة مجاهدى خلق المعارضة للنظام الإيرانى والتى يتواجد عدد من أعضائها على الأراضى العراقية تحت حماية أمريكية حيث سلمت الإدارة الأمريكية نهاية العام مسئولية معسكر اشرف الذى تتخذه المنظمة مقرا لها فى محافظة ديالى / ٨٠ كم شمال شرق بغداد/ إلى السلطات العراقية التى تعتبر تلك المنظمة غير مرغوب فى تواجدها على الأراضى العراقية باعتبارها تمارس عملا عدائيا ضد دولة تعتبرها الإدارة العراقية الحالية حليفا استراتيجيا رئيسيا وهى إيران .

تأسست مجاهدى خلق فى أعوام الستينات كتنظيم معارض لشاه إيران ونفذت فى ذلك الوقت والعقد الذي تبعه هجمات أسفرت عن مقتل العديد من الكوادر العسكرية الأمريكية ومدنيين يعملون فى مشاريع دفاع فى إيران، مما دعا الولايات المتحدة إلى وضعها على قائمة التنظيمات الإرهابية الأجنبية.

وهاجرت المنظمة إلى خارج إيران فى العام ١٩٧٩ فى أعقاب قيام الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخومينى وأعادت تشكيلها فى العراق برعاية من صدام حسين، حيث أخذت تشن هجمات فى إيران.

وبعد الغزو الأمريكي للعراق فى العام ٢٠٠٣، نزع الجيش الأمريكي سلاح عناصرها وأبقى عليهم فى قاعدتهم بمعسكر اشرف الذي وضع تحت الحماية الأمريكية على الرغم من تصنيفهم تنظيما إرهابيا وصار وجودهم نقطة خلاف كبيرة فى العلاقات بين بغداد وطهران. حتى تولى العراق الولاية القضائية على المعسكر بعد الاتفاقية الأمنية مع الولايات المتحدة وعلى الفور أبلغت الحكومة العراقية قيادة المنظمة بسيناريوهات محتملة لإعادة توطينهم خارج العراق أى طردهم من الأراضى العراقية وهو تحول بالغ الدلالة حمله العام ٢٠٠٨ ضمن ما حمل من تحولات كبرى .

كانت العلاقة بينى وبين منظمة مجاهدى خلق لا تعدو أن تكون علاقة صحفى بفريق إعلامى لتنظيم سياسى عسكرى محظور يتلقى بياناته بانتظام وينشر ما يصلح منها للنشر حتى زارنى ذات مرة شخص يدعى الدكتور محمد الموسوى بعد أن استأذن للحضور إلى مقر وكالة أنباء الشرق الأوسط وسط العاصمة بغداد لإيصال بعض المواد الصحفية وبعض الأقراص المدمجة التى تخص منظمة مجاهدى خلق باعتباره أحد المتعاطفين معها من العراقيين الرافضين للنظام

السياسى الحاكم بعد عام ٢٠٠٥ المدعوم من إيران انطلاقا من مبدأ «عدو عدوى صديقى » .

رغم خطورة الاتصال المباشر بأشخاص لهم علاقة بمنظمة تعادى إيران وهى الدولة ذات النفوذ الواسع فى العراق الجديد وافقت على الزيارة بعد إلحاح شديد على أن تتم خارج المكتب الرسمى وألا يطول وقتها بسبب الظروف الأمنية فى منتصف العام ٢٠٠٧ حيث كان القتل ثمنا قليلاً لسلوك من هذا النوع وان كان بدافع مهنى لمعرفة المزيد من الحقائق عن جهات وأماكن يعتبر التفكير فى الاقتراب منها كابوسا لأى شخص مهما كانت صلاته وطبيعة عمله .. فما بالك بصحفى مصرى يعتبره حكام زمن المذبحة شخصا غير مرغوب فيه ويستحق القتل لأسباب عديدة كما ذكرنا سابقا .

استمر اللقاء حوالى ساعة تخلله غداء أردته أن يكون بداية لعلاقة صداقة بعد أن تحدثت إلى الرجل المهذب المخلص لوطنه .. الذى رفض استغلال امتداده العشائرى الدينى فهو « سيد موسوى»[1] لينال الكثير من المميزات المتاحة لمن هم مثله فى العراق الجديد مقابل إرضاء ضميره والعمل لصالح وطنه وهو ما جر عليه الكثير من الويلات .. حكى لى الرجل الكثير من القصص وأمدنى بالكثير من المعلومات عما دار ويدور منذ انهيار نظام صدام حسين فى ابريل عام ٢٠٠٣ .. رغم قصصه المثيرة ووصفه للمعسكر الذى يقيم فيه عناصر منظمة مجاهدى خلق لم أقتنع كثيرا بأسلوبهم فى المعارضة المقيدة للنظام الإيرانى وبقائهم داخل معسكر أشبه ما يكون بالجيتو المعزول يخضع لنظام شبه عسكرى لا مجال فيه للحياة الخاصة أو المشاعر أو غير ذلك من أساسيات الحياة .. أخبرنى أن من يقيم بالمعسكر يقضى يومه فى العمل المكلف به وفق نظام حاسم أرساه قادة المعسكر لا وقت سوى لتناول الطعام بشكل جماعى ومشاهدة الأقراص المدمجة التى يفرضها القائمون على إدارة المعسكر بشكل جماعى أيضا .ثم النوم فى موعد محدد والاستيقاظ فى موعد محدد فى صباح اليوم التالى لمواصلة نفس البرنامج اليومى .

إلا أن إجاباته على تساؤلاتى بشأن قيام عناصر المنظمة بعمليات عسكرية ومشاركتهم فى تدهور الوضع الأمنى وإشعال الفتنة الطائفية كما يتم تسريبه من اتهامات على لسان المسئولين العراقيين كانت حافزا لى لطلب لقاء آخر لمعرفة

(1) يطلق لقب سيد بالعراق على من ينتمي لعائلة يمتد نسبها إلى آل البيت مثل : الموسوي ، والياسري وغيرها من العائلات التي لها أصول ثابتة دينيًا .

المزيد من التفاصيل عن طبيعة عمل منظمة مجاهدى خلق بعد سقوط نظام صدام حسين الذى كان قد منحهم خلال حكمه الكثير من المهمات القتالية والدفاعية خاصة إبان المرحلة الأخيرة التى سبقت دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد واستيلاء الحكام الجدد على كل ممتلكات ومقرات مجاهدى خلق ومعظم أسلحتهم وقيام القوات الأمريكية بتحديد تواجدهم داخل معسكر « أشرف بمحافظة ديالى » بعد نزع ما تبقى من أسلحتهم وإلزامهم بعدم العمل على الصعيد السياسى أو العسكرى نظير توفير الحماية لهم فى هذا المعسكر الذى تبلغ مساحته عشرات الكيلومترات .

استمرت اللقاءات مع الدكتور محمد الموسوى وكان كل مرة يوجه لى الدعوة لزيارة المعسكر للتعرف بشكل أكثر وضوحا على طبيعته ربما أتمكن ذات يوم من الكتابه عن حقيقة المقيمين بداخله الذين تمتلىء وسائل الإعلام بأخبارهم وتفرد الصفحات لعرض آراء المحللين السياسيين عنهم داخل العالم العربى وخارجه ولكن دون الاقتراب منهم مثلما فعلت فيما بعد استجابة لدعوة زيارة « معسكر أشرف » الذى يقيم فيه مجاهدى خلق بعد تفكير عميق فى تلك الرحلة شديدة الخطورة التى يفترش الموت كافة الطرق المؤدية إليها بدءا من حدود العاصمة بغداد فى مناطق الشعب والحسينية التى يسيطر عليها جيش المهدى والميليشيات الشيعية الأخرى مرورا بقرى وبلدات محافظة ديالى التى يسيطر تنظيم القاعدة على مناطق شاسعة منها خاصة تلك المؤدية إلى طريق العظيم حيث يقع معسكر أشرف على بعد حوالى ٨٠ كم إلى الشمال الشرقى من بغداد .

وعكس ما سبق من مغامرات أقل خطورة لم أستأنس برأى رفاق سلاح القلم الطيبين لأننى كنت أعرف الإجابة مسبقا وأنهم سوف يفعلون أى شيء لمنعى من الإقدام على تلك المغامرة المميتة سواء فى الطرق المؤدية إليها أو عند عودتى إلى بغداد لأننى بهذه الزيارة أتجاوز الكثير من الخطوط الحمراء بالنسبة للإدارة العراقية التى تناصب سكان المعسكر العداء وتتحين الفرصة للانتقام منهم خاصة من ينتمى إلى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وجناحه العسكرى « منظمة بدر» أو حزب الدعوة الإسلامية نظرا لأن عناصر مجاهدى خلق متهمون بتنفيذ عمليات ضدهم إبان حكم صدام حسين خاصة خلال حرب الثمان سنوات مع إيران .

انطلقت صوب معسكر اشرف بمحافظة ديالى بصحبة الدكتور محمد الموسوى بسيارة « نوبيرا» ذهبية اللون يقودها رجل فى العقد الخامس ينادونه «أبو محمد» كان قد اعتاد على العمل مع القائمين على المعسكر لنقل ضيوفهم أو شراء ما

يحتاجونه من بغداد أو إيصال رسائل إلى أشخاص أو جهات .. حيث كان محرما على سكان معسكر أشرف مغادرة بوابته تحت أى ظرف وفقا لاتفاق الحماية الأمريكى وإنما يقتصر تواجدهم ضمن حدود المعسكر .. بينما يسمح لعائلاتهم بالزيارة وفق تنسيق رفيع المستوى مع الحكومتين العراقية والإيرانية وحكومة إقليم كردستان المتمتع بالحكم الذاتى شمال العراق الذى يعتبر معبرا رئيسيا لضيوف المعسكر القادمين من خارج البلاد سواء كانوا إيرانيين أو من أى جنسية أخرى .

عندما اقتربنا من حدود منطقة الشعب التى كانت إحدى مناطق نفوذ جيش المهدى وشهدت شوارعها وأزقتها أعمال قتل مروعة وكانت بيوتها ملاذات أخيرة للمختطفين يجرى فيها تعذيبهم قبل قتلهم والقائهم فى الشوارع أو المساومة على فدية مالية كبيرة من ذويهم خاصة خلال العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .. أشار لى « أبو محمد إلى نقاط التفتيش الرسمية والوهمية التى كانت مصائد للموت فى زمن المذبحة إلا أنه طمأننى بأنه معروف لديهم ونصحنى بعدم التحدث .. ثم مررنا بمنطقة الحسينية التى لم تكن أفضل حالا من سابقتها حيث تنتشر الرايات السوداء وعليها كتابات تؤشر لعبارات ورموز دينية شيعية « يا حسين» « فداك يا أبا عبد الله» مع صور كبيرة الحجم للصدرين / محمد باقر الصدر ومحمد محمد صادق الصدر / .. وبعد ذلك دخلنا إلى تخوم محافظة ديالى التى كان اسم أى منطقة فيها يثير الرعب نظراً لما تشهده من أعمال عنف مروعة وعمليات اختطاف وقتل وتفجيرات وسطو مسلح وغير ذلك من الجرائم التى يتيح ارتكابها فى ذلك الوقت غياب سلطة الدولة وانتشار البساتين الكثيفة على جانبى الطريق وهى ملاذات آمنة للمجموعات المسلحة والعصابات على حد سواء .

تنتشر على جانبى الطريق بقايا سيارات وشاحنات تم تفجيرها وبعض البيوت الريفية البسيطة لأهل القرى وأصحاب تلك البساتين الشاسعة .. الطرق الخالية تبدو للمسافرين طويلة جداً عندما يعتريهم الخوف والقلق من شيء ما، وطريقنا يكاد يكون شبه خال، وقد عملت فيه العبوات الناسفة حُفراً عديدة،بعضها دمر نصف عرض الشارع، وهذا يقتضي من السائق الانتباه الشديد لئلا يقع في إحداها، وفي بعض الأماكن يحتاج السائق أن يقود مركبته بطريقة ملتوية (زجزاج) بعد تخفيف السرعة إلى أقصاها، وفي كل مرة يعبر عن تذمره لهذه الحالة، ويشتم الدوائر البلدية لتقاعسها عن ردم الحفر التي تشكل خطرا كبيرا على المسافرين.

يخيل إليك وأنت تسير في هذه الطرق وكأنك ذاهب إلى جبهة قتال، بخاصة أن بعض الوحدات العسكرية المنتشرة بمسافات متباعدة على طول الشارع قد

حفرت مواضعاً لآلياتها وأقامت سواتر لحماية الجنود، .. أوقف سائقنا السيارة بطريقة مفاجئة على الحافة الترابية للشارع بسبب قدوم رتل عسكري أمريكي يسير في الشارع الذي نسلكه وبطريقة معاكسة لاتجاهنا، برغم أن الشارع الآخر الموازي لاشيء فيه يضطر الرتل إلى سلوك شارعنا لكن هذه هى الأحوال فى الزمن الجديد الذى لا مجال فيه للخطأ أو عدم الانتباه للعابرين لأن ذلك يعنى ببساطة أن تفتح تلك الآليات نيران أسلحتها لتحيل العابرين غير المنتبهين إلى أثر بعد عين .

بعد حوالى ساعة ونصف الساعة انحرف سائقنا يمينا وابتسم لى إيذانا بوصولنا إلى مقصدنا بينما قال الدكتور محمد حمد الله على السلامة هذه هى بوابة المعسكر .. لاحظت حركة كثيفة لمواطنين عراقيين يدخلون ويخرجون من المعسكر الذى يطلق عليه أصحابه « مدينة أشرف» وبادرنى الدكتور محمد بالقول أن المعسكر مفتوح لأهالى المنطقة لأنه يضم مستشفى ومنتزهات عائلية يسمح لأهالى القرى المحيطة به من سكان محافظة ديالى باستغلال مرافقه وأن هناك علاقات ودية وثيقة بين سكان المعسكر وأهالى المناطق المحيطة بهم لأنهم يشكلون حماية طبيعية لهم .. كما أن سكان المعسكر أقاموا العديد من المشروعات الخدمية خاصة محطات تنقية مياه الشرق وخطوط المياه لسكان المنطقة .

عبر بوابات وإجراءات أمنية مشددة دخلنا إلى المعسكر الذى تحيطه أبراج الحماية يعلوها المسلحون بينما تنتشر عناصر من مجاهدى خلق على بواباته بزى موحد يشبه زى الجيش «زيتى اللون» لاستقبال الزائرين الذين يتطلب دخولهم إلى المدينة المرور عبر ثلاث بوابات تنتشر على جوانبها الدشم الحصينة والأكياس المحملة بالرمال التى يطلق عليها العراقيون كلمة « هسكو» بما يشبه الثكنة العسكرية .. كنت قد اشترطت على مرافقى إلا يسجل إسمى فى سجلات الزوار وأن أحتفظ بهويتى دون أن يفحصها أى شخص أو تخضع لتدوين بياناتها أو تصويرها كما هى العادة والإجراءات المتبعة مع كافة الزائرين .. وكان لى ما أريد كإجراء احترازى يمنع ورود اسمى بشكل رسمى أو شبه رسمى كعابر إلى هذا المكان نظرا لحساسية الموقف سياسيا وأمنيا .

استقبلنا رجل ذو وجه مبتسم يدعى سعيد يتكلم العربية بلكنة فارسية ويتحدث الإنجليزية بطلاقة كان هو المكلف بمرافقتى طوال فترة الزيارة التى استمرت ثلاثة أيام .. اصطحبنا سعيد إلى منطقة الـ VIP حيث كان مقرراً أن نقضى فترة الزيارة بينما ذهب الدكتور محمد الموسوى إلى حيث يقيم دائما كمتعاون مع المنظمة

حيث كان يجرى الإعداد لعقد مؤتمر كبير داخل مدينة اشرف بعد يومين بحضور عدد من أعضاء البرلمان الأوروبى ومجلس النواب العراقى للتنديد بالممارسات الإيرانية داخل العراق .

صعدت سيارة « لاندكروز» مع مرافقى واجتزنا شوارع نظيفة منسقة تنتشر الحدائق على جانبيها لنصل إلى الميدان الرئيسى للمدينة والذى تتوسطه صورة زيتية كبيرة لزعيم المنظمة مسعود رجوى وأخرى لزوجته السيدة مريم رجوى ثم عرجنا إلى المنطقة المخصصة لإقامتى وهى عبارة عن بيوت صغيرة يضم كل منها أربعة غرف تحيطها حديقة منسقة لاكتشف أننى لست وحدى المتواجد بها وإنما هناك ضيفان آخران حضرا للمشاركة فى المؤتمر المقرر عقده بعد يومين هما الصحفى العراقى المخضرم نصير النهر وصحفى كندى يعمل فى مجال الأبحاث ويعد دراسة عن منظمة مجاهدى خلق .

بعد تناول الغداء الإيرانى المميز الذى تفوح منه رائحة الرمان والعنبر شرح لنا سعيد نظام المعسكر وكيف جرى تصميمه مثل مدينة طهران بكل تفاصيلها بما ذلك المسجد الكبير وأسماء الشوارع والجسور وحتى الأنهار والحدائق ليكون كما أراد القائمون عليه نموذجا لعاصمة إيران حتى يشعر سكانه أنهم فى بلدهم الأم ..وحرص القائمون على المعسكر أن يكون محمية طبيعية ترى فيها كل أنواع الطيور والحيوانات التى تعتبر تلك المناطق بيئة أصلية لها ويمنع منعا باتا الصيد بكافة أنواعه حيث يعيش الطيور والحيوانات وحتى الحشرات بلا أى تهديد .. كما تنتشر فى المدينة الأشجار العتيقة ذات الأنواع النادرة .. ويحرص القائمون على المعسكر على أن يكون نمط الحياة فيه كأى مدينة حيث يضم مركزاً للشرطة لا يسجل فيه بالطبع أى شكوى وإدارة للمرور تشهد بعض التقارير عن مخالفات بتجاوز السرعة نظرا لجودة شوارع المعسكر وفراغها تقريبا من السيارات التى لا يحتاج إليها سكان المعسكر إلا فيما ندر لأن كل شخص فى المعكسر الذى يضم حوالى ٣٥٠٠ رجل وامرأة يعرف عمله جيداً ويتحرك ضمن دائرة مرسومة لا يخرج عنها مطلقا .

عندما تتحرك فى شوارع المعسكر الهادئة سواء بالسيارة أو سيراً على الأقدام يفاجئك هذا النظام الملحوظ والنظافة المبالغ فيها .. وبخلاف ما كنا نسمعه فى العاصمة بغداد من تفجيرات وإطلاقات نارية فإن المعسكر لا تسمع فيه سوى أصوات الطيور أو صوت احتكاك إطارات السيارات القليلة العابرة من قسم إلى آخر لتنقل بعض أعضائه أو تأتى باحتياجاتهم التى يشترونها من خارج المعسكر .

وعندما تستدعى الصور التى مازالت تنشر لفتيات ونساء منظمة مجاهدى خلق

اللاتى يحملن السلاح بزى عسكرى وأخريات يعتلين ظهر دبابات أو آليات عسكرية .. يفاجئك هذا الهدوء الغريب الذى يعم أرجاء معسكر أشرف لتكتشف أن تلك الصور هى صور قديمة كان قد تم التقاطها إبان العمل العسكرى الذى كان يقوده فصيل « جيش التحرير الوطنى» قبل أن تقوم القوات الأمريكية بنزع سلاح هذا الفصيل ضمن صفقة الحماية التى فرضت هدوءا داخل المعسكر بعد أن ترك الجميع السلاح عمليا ليمارسوا أعمالا مدنية انتاجية وتثقيفية.

إلا أن هذا الهدوء الغريب قطعه صوت سقوط ثلاثة صواريخ كاتيوشا باتجاه المعسكر أثارت بعض الفزع فى نفس ساكنيه ولم تؤدى إلى أى خسائر بشرية حتى أنها لم تنفجر وإنما أحدثت بعض الحفر فى أرضية المعسكر .. وسرعان ما وجهت المنظمة فى بيان الاتهام إلى ايران باستهداف المعسكر الهادئ الذى كان يستعد لاستقبال مؤتمر صاخب طالب المشاركون فيه بطرد السفير الإيرانى حسن كاظمى قمى من بغداد وأدانوا التدخل الإيرانى فى الشأن العراقى وهو ما جلب الكثير من المشاكل لمعظم من شارك فيه خاصة الدكتور صالح المطلك رئيس جبهة الحوار الوطنى الذى استقبلته مطالبات من زملاء له فى البرلمان بطرده ورفع الحصانة عنه خاصة النواب الممثلين للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية ومنظمة بدر التى يقودها رئيس لجنة الأمن والدفاع بالبرلمان فى ذلك الوقت هادى العامرى وكذلك خطيب جامع براثا « الشيخ جلال الدين الصغير» .

استمرت الزيارة وفق برنامج منظم من اللقاءات المكثفة بقيادات المنظمة المتواجدين بالمعسكر خاصة قادة جيش التحرير الوطنى والمسئولين عن الإعلام فيه بالإضافة إلى لقاءات مع بعض سكان المعسكر الذين يتوزعون على وحدات تحمل أرقاما بعضها مخصص للرجال والآخر للنساء حيث أن المعسكر ممنوع فيه الاختلاط وسن القائمون عليه مبدأ التآخى الذى فصل حتى بين الزوج وزوجته باعتبار أن الاستمتاع بأى مباهج الحياة محرم على المجاهدين « كما يحبون أن يطلق عليهم «حتى تحقيق النصر وإسقاط نظام ولاية الفقيه فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية .

كما شملت الزيارة مواقع إنتاج المتطلبات الرئيسية لغذاء سكان المعسكر الذين يقومون بأعمال الزراعة وصناعة الأغذية والمرطبات والأجبان والمربات ويشترون فقط الدجاج واللحوم من خارج المعسكر .. كما يضم المعسكر مصنعا كبيرا للحافلات « الكرفانات» وثلاجات الشاحنات وهو يعد أحد مصادر الدخل الرئيسية للمنظمة ويتم تسويق ما يفيض من منتجات عبر إقليم كردستان ووسطاء عراقيين لتوفير المبالغ اللازمة لشراء الاحتياجات لسكان المعسكر .

يضم المعسكر مستشفى صغيرا به عدد من الأطباء والممرضات من عناصر المنظمة من الجنسين يعاونهم بعض المتطوعين من الأطباء العراقيين والأكراد وهو مفتوح لعلاج الحالات المرضية من أهالى القرى المحيطة بمدينة اشرف بالمجان.

روى لى أحد النزلاء الدائمين بالمستشفى كيف اجتاحت قوات ترتدى زى الجيش الإيراني مناطق شرق العراق إبان الغزو الأمريكى عام ٢٠٠٣ وكيف انتقموا من مقاتلى منظمة مجاهدى خلق المنتشرين بالقرب من الحدود الإيرانية وكان واحدا منهم وكيف فتكوا بهم ومثلوا بجثث بعضهم وتتبعوا آثار من تمكن من الفرار حتى داخل مستشفى بعقوبة مركز محافظة ديالى التى تبعد ٦٦ كم شرق بغداد وقتلوا عشرات الجرحى .. قال لى الرجل الذى تعمل نصف أجهزته فقط أن السبب فى انهيار وضعه الصحى ووصوله إلى عتبة الموت هو محاولة ضباط إيرانيين قتله داخل المستشفى عندما كان يتلقى علاجا من إصابة فى قدمه إلا أنه استطاع مقاومة الموت والبقاء على قيد الحياة رغم أن نصف أجهزة جسمه ومعظم أعضائه قد دمرت وأصبحت عاجزة عن العمل .

الغريب فى الأمر أن المعسكر لا يشهد على غرار العاصمة العراقية بغداد ومعظم مناطق البلاد أى انقطاع للكهرباء أو مياه الشرب النقية حيث يضم محطة كبيرة لإنتاج الكهرباء ومحطات لمياه الشرب وتحقق المحطتان الاكتفاء الذاتى لسكان المعسكر ويتم ضخ ما يفيض لسكان القرى المجاورة كما أنك لا تلحظ أى تلوث فى أجواء المعسكر حيث المساحات الخضراء والبحيرات الاصطناعية خاصة فى ظل عدم وجود مولدات تعمل بالسولار وما تنتجه من ملوثات ودخان أسود يغلف سماء بغداد وغيرها من المناطق المحرومة من الكهرباء .

ووفقا لنظام الحياة بالمعسكر التى تشبه الحياة العسكرية فإن الزى العسكرى الزيتونى هو السائد بلا أى إشارة إلى رتبة أو منزلة أو درجة توضح الرئيس من المرؤوس إلا أن الجميع يعلم مكانته ودوره داخل منظومة العمل التى تسير بشكل آلى .. لا مكان للنقود فى المعسكر فكل فرد فيه يأخذ الاحتياجات المقررة من جانب القادة .. حتى أن المول الذى يقع داخل المعسكر ويضم محالا تجارية تضم ماركات عالمية وبضائع بعضها إيرانى والآخر تركى وأماكن ترفيهية ومطاعم ومحال لبيع المكسرات والمشروبات والأجهزة الكهربائية والملابس وغيرها من المتطلبات كأى مركز تجارى يتم البيع فيها من خلال « بون» أو هوية شراء يكتب عليها اسم المشترى وقيمة مبلغ الشراء بالعملة العراقية « الدينار » ويقوم المشرف على المحل أو المطعم بتسجيل

البيانات المدونة على « البون» لخصمها من رصيد المشترى لدى إدارة المعسكر أو هو الرصيد الذى يتراكم بفعل العمل فى مناطق الإنتاج سالفة الذكر .

يضم المعسكر متحفا لضحايا مجاهدى خلق ممن تم إعدامهم على أيدى الأنظمة الإيرانية المتعاقبة ونماذج مجسمة وصورا لهؤلاء الضحايا وبعض مقتنياتهم وبقايا كتاباتهم وآثارهم .. كما يضم قاعة للفيديو تعرض بعض عمليات التعذيب وتنفيذ أحكام الإعدام التى يجرى أغلبها فى الشوارع والميادين العامة.

• أم كلثوم وعبد الباسط

كانت مساءات الزيارة عبارة عن لقاءات ترفيهية مع أعضاء المعسكر الذين يقيمون مأدبة العشاء للضيوف يعقبها حوار مفتوح يتخلله عرض لمواهب المجموعة صاحبة الدعوة وتتوزع بين كتابة الشعر العربى والفارسى والغناء وعزف العود ..أما الأمر الذى جذب انتباهى هو الجماهيرية الكبيرة التى تحظى بها سيدة الغناء العربى كوكب الشرق أم كلثوم فى المعسكر حيث يحرص الجميع على سماع أغنياتها خاصة فى لحظات التنزه المسموح بها أوقات العصر حتى المغرب على البحيرة الصناعية الموجودة بالمعسكر والحدائق التى تنتشر بالمعسكر رغم أن معظم عناصر مجاهدى خلق لا يجيدون العربية إلا أنهم أخبرونى بعشقهم لصوت أم كلثوم والموسيقى المصاحبة له .. كما يحظى القارئ المصرى الشهير الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بشعبية جارفة لدى محبى الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم حتى أن كثيراً منهم طلبوا منى إحضار شرائط كاسيت خاصة بأم كلثوم وعبد الباسط عند زيارتى القادمة للمعسكر التى لم تحدث حتى الآن .

بعد الاستمتاع والسمر بعد تناول العشاء يجرى عرض ما يتم اختياره من قبل القائمين على المعسكر من أخبار ولقطات مصورة إما لإشاعة أجواء الحماسة أو تطمين عناصر المعسكر على مساندة ودعم مجاهدى خلق بالإضافة إلى خطابات السيدة مريم رجوى وزوجها الموضوع قيد الإقامة الجبرية فى أوربا بصفته مطلوبا بتهم الإرهاب مسعود رجوى .. كما يجرى عرض الحفلات التى أقامها أعضاء المنظمة فى أوقات سابقة قبل تدهور الأوضاع الأمنية .. مع أناشيد حماسية وذلك عبر دائرة تليفزيونية مغلقة يتحكم فيها قادة المعسكر .

ورغم النظام الدقيق الذى تسير به الأمور كما خطط المسئولون عن « مدينة أشرف » واستسلام عناصر المعسكر للأوامر الصارمة وتنفيذها بدقة ترقى إلى فرق

الجيش النظامى سواء فى العمل أو الحياة المنضبطة .. ورغم ما رواه لى أعضاء من أعمار متفاوتة داخل المعسكر عن إيمانهم بقيم المنظمة ونذر حياتهم للجهاد من أجل الحرية وتخليص الوطن ممن يعتبرونهم أعداء لإيران ورضاهم الكامل بذلك النمط شديد الخشونة من الحياة الذى يحرم عليهم أى شيء سوى العمل الشاق .. إلا أن ما جعلنى اشعر بقسوة الأوضاع هو هؤلاء الشباب المنضم حديثا إلى معسكر اشرف من الجنسين وملامح القهر البادية على قسمات وجوههم التى لم يتسلل الجمود وتجاعيد الزمن إليها بعد .. وكنت أتساءل كلما التقت عينى بعين أحدهم « كيف يمكن للإنسان أن يتنازل عن كل هذه الحقوق والمتع ؟؟ وكيف له أن يكبت رغباته ويلغى حاجاته الطبيعية ؟؟ .. وما هو ثمن هذا النضال الممتد الذى لا تظهر له أى نتيجة على مدى العقود الماضية ؟؟.

غادرت المعسكر ولم تفارقنى ملامح الإصرار التى تملأ وجوه المقيمين فيه خاصة أولئك الذين يقدمون خدمات إنسانية فى المستشفى وغيرها من مرافق المكان ورغبتهم العارمة فى تكرار الزيارة ولكن ليس بمفردى فى المرة القادمة .. كنت أتساءل هل يدرك سكان المعسكر ما يدور خارج أسواره .. وهل يعلمون الحجم الحقيقى لمأساتهم وكيف أن الجميع تخلى عنهم حتى أمريكا التى تحميهم بشكل مؤقت وتتحين الفرصة للمقايضة بهم ضمن صفقة جرت وقائعها فيما بعد عندما سلمت المسئولية الأمنية لمعسكرهم إلى القوات العراقية فى إطار تنفيذ بنود الاتفاقية الأمنية .

ربما يخالجك وأنت تزور عناصر منظمة مجاهدى خلق إحساس بالشفقة عليهم رغم كل ما يشاع عن جرائم ارتكبوها وفق تصريحات المسئولين العراقيين الحاليين .. إلا أن الكارثة الكبرى من وجهة نظرى هى ما يقوم به المسئولون عن المعسكر من إخفاء للحقائق عن سكانه وجعلهم تحت سيطرة الدائرة التليفزيونية المغلقة وهو ما لا يمكن أن ينتج سوى ذاكرة مشوهة غير قادرة على اتخاذ القرار الصحيح بالبقاء لمواصلة ما يعتقدون أنه نضال حقيقى ضد الظلم أو العودة إلى حيث جاءوا ويرضوا بالأمر الواقع ليتولى غيرهم من المعارضين النضال ضد النظام الإيرانى بأسلوب مختلف .

قال لى سعيد وهو يودعنى عند آخر نقطة مسموح له بالتواجد فيها على حدود معسكر أشرف أن القدر شاء أن تنتصر المعارضة العراقية وينهار نظام صدام حسين حتى تزداد مأساة مجاهدى خلق ويكون للنظام الإيرانى النفوذ الأكبر فى البلد التى اختاروها ملاذا ومنطلقا لمعارضتهم له ويصبحوا هم ورقة للمساومة فى إطار صفقات استعراض العضلات بين واشنطن وطهران .. ضحك سعيد بسخرية متسائلا « ماذا

لو كان قد حدث العكس وانتصرت المعارضة الإيرانية وانهار نظام ولاية الفقيه ؟؟ » .

غادرت معسكر أشرف تنتابنى الكثير من المخاوف أولها طريق العودة عبر مناطق محافظة ديالى المشتعلة واحتمالات تسرب خبر وجودى فى المكان المحظور الذى يقيم فيه أعداء حكام العراق الجدد وغير ذلك من الهواجس التى رافقتنى فترة طويلة وغادرنى بعضها .. بينما بقيت بعض الهواجس والتساؤلات فى جزء من زوايا الذاكرة أستحضرها مع ما يراودنى من مشاهد كلما وصلنى بيان إعلامى عليه شعار « مجاهدى خلق » .